

الرجل الذي لا يعرفه أحد

بقلم بروس برتون

«ألا تريد أن أكون في ما لأبي ؟»

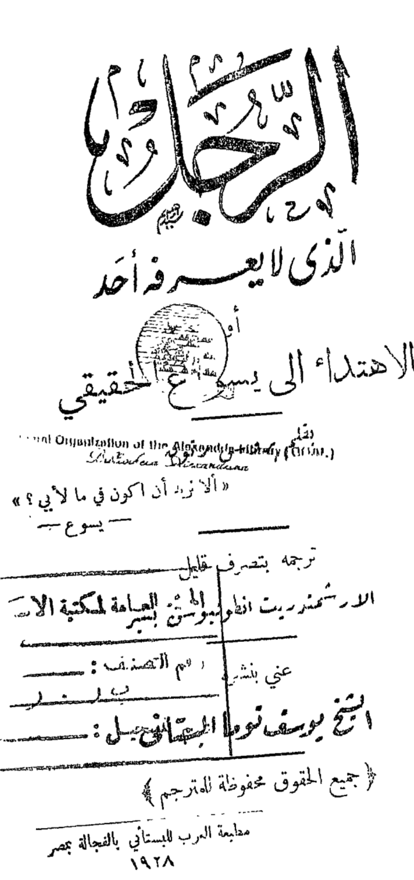
— يسوع —

ترجمه بتصرف قليل
الأرشمندريت انطونيوس بشير

عني بنشره
الشيخ يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب
بالفجالة بمصر

سنة ١٩٢٨

مطبعة العرب للبستاني
بالفجالة بمصر



الرجل الذي لا يعرفه أحد

أو

الاهتداء الى يسوع الحقيقي

بقلم بروس بارتون

«ألا تريد أن اكون في ما لأبي ؟»
— يسوع —

ترجمه بتصرف قليل

الارشمندريت انطونيوس بشير

عني بنشره

الشيخ يوسف توما البستاني

مطبعة العرب للبستاني بالفجالة بمصر
١٩٢٨

اهداء الكتاب

الى من يحب العلم ويغار على الادب ، الى التاجر الكبير بروحه وفكره وقلبه ، الى صديقي الاديب الذي لم تفقده رغبته في التجارة العطف على الادب وجنوده ، الى التاجر المستقيم والعامل الصادق فى كرم الانسانية

الياس الحداد

المقيم في عاصمة المكسيك

أهدي هذا الكتاب

كيف وضع الكتاب

جلس الولد الصغير في كرسيه الخشبي ، وهو لا يدري بما يجري حواليه مستسلمًا بكآبته لما كان يختلج في فكره من النيران المشتعلة .

وقد كانت هـذه الساعة الوحيدة في كل أسبوع — الساعة الوحيدة التي يتـاح له فيها أن يتمتع بما في الثورة الفكرية من اللذة البالغة .

وجلست المعلمة التقية أمامه وهي لو عرفت ما يثور في فكره من براكين الثورة الادبية لاختلجت رعبًا وقضت حسرة ولوعة .

وكانت في صباح كل أحد ، وفي مثل هذه الساعة ، تردد على مسمعي تلميذها الصغير قائلة : « يجب أن تحب يسوع ، ويجب أن تحب الله . »

وكان الولد يصغي الى قولها ولا يجيب بكلمة قط . لانه كان يخاف أن يتلفظ بكلمة واحدة ؛ ويخشى في كل لحظة أن يحدث له ما لا يسره بسبب الافكار التي في رأسه .

وكان لا يفتر هنيهة عن التسائل في سره قائلاً : يجب أن أحب الله ؟ ! الذي يضطهد الناس لانهم يتمتعون بأفراح الحيـاة ، ويرسل الاولاد الصغار الى الجحيم لانهم لم يستطيعوا أن يقوموا بأفضل مما قاموا به من الاعمال في هذا العالم الذي خلقه صعبًا بهذا المقدار ! ؟ ولماذا لم يخلق الله الناس كما يشاء ويريد ؟

يجب أن أحب يسوع ! هـذا الذي أرى صورته معلقة على حائط مدرسة الاحد ! الصورة التي تمثل شاباً في مقتبل العمر كئيب الوجه ضعيف الجسم حزيناً مغموماً !

كان الولد يسأل نفسه كل هذا ثم ينظر الى الحائط الثاني في المدرسة فيرى دانيال الشجاع واقفاً أمام الاسود وقفة الجبار العظيم . وقد أحب الولد الصغير دانيال ، وأحب الفتى داود أيضاً وبيده المقلاع الذي أرسل منه حجراً صغيراً مربعاً فأصاب جبهة جليات الجبار وألقاه صريعاً على الارض . وأحب موسى ، وبيده عصاه وحيته النحاسية الكبيرة . قد أحب هؤلاء الثلاثة لانهم كانوا منتصرين في أعمالهم .

ولكن يسوع ! كان يسوع «حمل الله» . ولم يفهم الولد الصغير معنى هذه العبارة ، بل خيل اليه ان هذا الحمل كان شبيها بالحمل الصغير الذي عند شقيقته لاجل التسلية واللعب ! وكان يسوع أيضاً « وديعاً وضيعاً » و « رجل كآبة ومختبر الحزن » وقد طاف في العالم ثلاثة سنوات يحض الناس على عدم القيام بالكثير من اعمال الحياة !

وكان يوم الاحد مكرساً ليسوع ؛ وكان من الخطيئة أن يشعر الانسان في مثل هذا اليوم بطمأنينة او راحة ولم يكن يؤذن له أن يضحك في يوم الاحد .

ولذلك كان الولد الصغير يفرح في اعماق قلبه عندما يدق

مدير مدرسة الاحد الجرس ويعلن للتلاميذ قائلا : « لنختم اجتماعنا بالترنيمة الختامية . » لانه في تلك الدقيقة كان يتخلص من الساعة المزعجة في المدرسة ، وينجو من يسوع وكآبته اسبوعاً كاملاً

* * *

مرت الايام ، وانقضت الاعوام . فصار الولد الصغير رجلاً كبيراً وتاجراً مجتهداً .

فعاودته الافكار القديمة . ولكن بصورة جديدة اوقفته أمام يسوع وقفة المعجب الراغب في ادراك الحقيقة .

فقال مرة في نفسه : « لا يستطيع ان يثير نار الحماسة في قلوب الناس ، ويؤلف الجمعيات العظيمة ، الا من اجتمعت في شخصيته كل قوات المغنطيسية النافذة . وقد انشأ يسوع اعظم الجمعيات الانسانية وأفضلها . فهو لا شك شخص عجيب يستحق الدرس الطويل . »

وكان كلما اكثر من قراءة الكتب عن حياة يسوع وسماع المواعظ والخطب الكثيرة يزداد حيرة وشكا .

ولذلك خطر له في احد الايام ان يزيل من فكره كل ما ابقته فيه المواعظ والكتب من التأثيرات المختلفة . فقال في ذاته

« سأقرأ كل ما كتبه الرجال الذين عرفوا يسوع شخصياً وشاهدوا اعماله وسمعوا اقواله . وسأدرس كل ذلك كأني لم اسمع

كلمة قط عن هذا الرجل وكأنه شخص جديد في التاريخ اقرأ ترجمته للمرة الاولى في حياتي . »

وبعد ان فرغ من دروسه اخذ الدهش بمجامع قلبه .

ضعيف حقير ! من اين جاء العالم بهذه العقيدة ؟ فقد كان يسوع نجاراً ناجحاً في مهنته التي عملت على انماء عضلاته وصلابة جسده. وكان ينام في الهواء الطليق ويقضي ايامه ماشياً على قدميه حول بحيرته المحبوبة . وكان قوي الجسم مفتول العضل حتى أنه عندما طرد الباعة من الهيكل وألعب صوته في ظهور الصيارفة الذين قلب موائدهم وحرمهم لذة أرباحهم لم يتجاسر احد من الالوف الذين طردهم من بيت ابيه ان يقاومه !

عدو للافراح ! ومن اخبر الناس بهذا الافتراء ؟ فقد كان يسوع سحابة حياته في الولائم ضيفاً محبوباً مكرماً من الجميع في اورشليم ! ولذلك انتقده الفريسيون بأنه ينفق أيامه بمعاشرة العشارين والخطاة (الذين كان يعتقد بصلاحهم وفضلهم) والانصباب على الافراح والملاهي . ولذلك اطلقوا عليه لقب «أكول وشريب خمر . »

رفيق للفشل ! ان هذا بالحقيقة محض تجديف على الرجل . فقد اختار اثني عشر رجلا من احقر اعمال الحياة والف منهم جمعية دان لها ولمبادئها العالم باسره .

وبعد أن فرغ التاجر من مطالعته الجديدة صرخ بأعلى صوته قائلاً :

« هذا هو الرجل الذي لا يعرفه احد . »

ثم قال في قلبه ، « سيدرك الناس هذه الحقيقة عاجلاً أو آجلاً فيقوم منهم من يكتب كتاباً جديداً في حياة يسوع يقرأه جميع أرباب الاعمال ويرسله كل منهم الى شركائه واصحابه . لان هذا الكتاب يقدم للعالم ترجمة المؤسس الحقيقي للاعمال الجديدة . »

وهكذا سار في اعماله يترقب من يكتب هذا الكتاب. ولكن لم يفعل احد ذلك . بل رغماً عن هذا فان كتباً كثيره طبعت حديثاً في « الرجل الذي لا يعرفه احد » تمثله للناس « كحمل الله ، الضعيف ، الكئيب ، الفرح بالموت لانه يريحه من شقائه . »

ولما نفدت جعبة صبره ، قال في ذاته « يلوح لي اني ساكتب هذا الكتاب بنفسي ، فقد استطيع ذلك . »

وقد فعل ذلك .

الرجل الذي لا يعرفه احد

الفصل الاول

الحاكم العادل

وكان الوقت عند المساء .

واذا رغبت في قياس طول رجل ما ، فهذا هو الوقت الملائم لمراقبة اعماله ودرس شخصيته . فنحن جميعنا اطول عند الصباح بنصف قيراط منا عند المساء ؛ ولذلك يسهل جداً أن نبني احكامنا الكبيرة في الامور عند ما يكون الفكر مستريحا والاعصاب هادئة . ولكن ساعات النهار تحمل معها كثيرا من الحوادث المزعجة التي تتقلص امامها النفوس الصغيرة فيظهر بتقلصها الفرق العظيم الكائن بين الانسان واخيه الانسان . فالرجل الصغير يخسر صبره وتوهن عزيمته ، ولكن الرجل الكبير يزداد قوة وثباتا في جميع اعماله .

وكان الوقت عند المساء في بلاد الجليل .

وكان الاثنا عشر رجلا ، بعد ان مشوا على اقدامهم سحابة النهار في الطرق الممتلئة بالغبار والحر المذيب للانفاس ، قد أخذ منهم التعب كل مأخذ ، ولذلك طارت نفوسهم فرحا اذ نظروا وهم منحدرون من احدى التلال الصغيرة قرية قائمة على مقربة منهم .

واذ عرف معلمهم ما ألم بهم من العناء الشديد بعد السفر المتواصل ارسل اثنين منهم الى القرية ليعدا له ولتلاميذه مكانا يبيتون فيه تلك الليلة ، وجلس مع العشرة الباقين ينتظرون رجوع الرسولين بفارغ الصبر .

وبعد هنيهة من الزمان اطل الرسولان عن بعد ، ولكن المسافة التي كانت تفصلهم عن بقية الاخوة لم تقدر أن تخفي آثار الكدر الظاهرة في مشيهما وحديثهما احدهما للآخر . فكانت وجناتهما متوردة وصوتهما ممتزجا بالغضب الشديد وكل منهما يسابق رفيقه لكي يكون الاول في سرد ما جرى لهما. فقصا بانفاس متقطعة كيف ان ابناء القرية رفضوا ان يقبلوهما ، وانذروهما ان يطلبوا مع معلمهما وتلاميذه ملجأ في غير قريتهم .

وفي أقل من لحظة واحدة سرى غضب الرسولين الى جميع التلاميذ ، الذين استطاعوا بالكاد أن يصدقوا آذانهم . اذ لم يكن يخطر لهم قط ان قرية حقيرة كتلك القرية يمكن أن ترفض استقبال معلمهم العظيم . فقد كان رجل الساعة في تلك البلاد ، ولم يكن للعالم من حديث في اجتماعاتهم العمومية الا بعظائم أعماله . لانه كان يشفي جميع المرضى ويعطي الفقراء بسخاء لم يحلموا بمثله من ذي قبل . وكان الناس في المدينة العظيمة يتبعونه متشوقين لسماع كلامه ، حتى ان تلاميذه صاروا في مقدمة الجموع ينظر اليهم الناس

باحترام ويرغبون في محادثتهم والتقرب منهم . والآن ترفض هذه القرية الصغيرة أن تقبلهم ضيوفاً فيها —

لاجل كل هذا نهض واحد منهم وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وقال للمعلم ، « يارب ، ان سكان هـذه القرية لا يمكن احتمالهم ، فلنطلب ناراً من السماء تنزل عليهم وتحرقهم . »

فصدق جميع التلاميذ على كلامه بملء الحماسة . النار من السماء — هذا أفضل ما يستحقه هؤلاء الاردياء ! أرهم نتيجة فظاظتهم ! علمهم انهم لايقدرون أن يهينونا بدون عقاب ! النار ، النار حالا أيها المعلم —

كثيراً ما يكون السكوت أفصح وأشد فعلا من الكلام . وكل حاكم حكيم يعرف هذه الحقيقة بقوة الغريزة . لانه اذا انخرط في مجادلة الناس ينزل نفسه الى منزلتهم ؛ ولكن الصمت يبرهن لهم على جنونهم ؛ فيتمنون لو أنهم لم يسرعوا في ايضاح أفكارهم ؛ ويحارون في تفسير ما يفكر به بعد سماع كلامهم . في تلك الساعة تقلصت شفتا يسوع ؛ وبدت على وجهه المشرق بالصحة والقوة آثار التعب الذي تحمله في الاسابيع الماضية ، وارتسم في مرآة عينيه الصافيتين خيال الآلام المريرة التي كان عليه أن يكابدها في الاسابيع المقبلة . فقد كانت حاجته عظيمة الى الراحة في تلك الليلة ، ولكنه لم ينبث ببنت شفة . بل نهض في الحال بملء الهدوء والرزانة وسار في طريقه يتبعه جميع التلاميذ الثائرين في أعماق قلوبهم . سهل جداً أن نتصور اليوم شعوره العميق المؤلم تجاه هذا الفشل الذي لم ينتظر

مثله . لانه كان يعمل ويعلم أمام تلاميذه مدة ثلاث سنوات قبل هذه الحادثة . . . . أفلم يدركوا شيئاً من حقيقة العمل الذي جاء الى العالم من أجله ؟ فقد كان وقته قليلا جداً ، ومع ذلك كانوا يقتلون هذا الوقت الثمين بما لا طائل تحته . . . . قد جاء ليخلص الانسانية ، ولكنهم أرادوا أن ينتقم لنفسه ممن رفضوا قبوله في قريتهم بانزال نار من السماء واحراق قرية بكاملها !

على تلك الطريقة الضيقة سار التلاميذ وراء معلمهم ، حابسين أنفاسهم لشدة الاحترام والتهيب من صمته ، وهم لا يشعرون انهم جهلوا معرفة حقيقته أو قياس ملء قامته . وهنا يقول لنا الكاتب انهم « ذهبوا الى قرية أخرى ، » من غير أن يضيف كلمة واحدة الى هذه الحادثة . فلم يقم جدال بينهم قط ، ولم يتحدثوا في الموضوع لحظة واحدة بدون فائدة . لان فكر يسوع لم يرَ في الحادثة شيئا يستحق البحث ، أو على الاقل يستحق أن يقول فيه كلمة واحدة . لأن الحياة العاملة التي يجب أن تقوم بالاعمال الجليلة الكثيرة في وقت قليل لا يمكن أن تأذن لمثل هذه الحوادث الصغيرة بالدنو من هيكل ذاكرتها المقدس .

« وانصرفوا الى قرية أخرى في طريقهم . »

* * *

وبعد هذه الحادثة بألف وثمانماية سنة ترك أحد الرجال العظام البيت الابيض في مدينة واشنطون وسار الى مكتب وزارة الحربية،

يحمل رسالة من رئيس الجمهورية الى وزير الحربية . بيد انه لم تمر على غيابه بضع دقائق حتى رجع الى البيت الابيض وهو يرتجف لشدة الغضب والانفعال . فنظر اليه الرئيس بوداعة تمتزج بالغرابة مستفهما عن السبب ، وسأله قائلا :

« هل دفعت الرسالة الى « ستانتون ؟ » Stanton

فأشار الرجل بالايجاب وهو لفرط غضبه لا يستطيع الكلام .

فسأله الرئيس بملء الهدوء ، « وماذا فعل بعد ان اطلع عليها ؟ »

فأجابه ، والدموع تترقرق في عينيه من كثرة تأثره ، « قد مزقها ، ورمى بها الى الارض . ولم يكفه كل ذلك ، بل قال انك مجنون . »

فنهض الرئيس من كرسيه ، وانتصب على قدميه ، ونظر الى الرسول نظرة الفاحص الحكيم ، وقال له :

« هل قال ستانتون انني مجنون ؟ »

فأجابه قائلا : « نعم يا سيدي ، قد قال ذلك وأعاده غير مرة . »

فقال الرئيس ، والابتسامة ظاهرة على شفتيه ، « جميل قوله أيها العزيز ويلوح لي انه حقيقي ، لان « ستانتون » مصيب في جميع أحكامه . »

وعبثا ترقب الرسول هبوب العاصفة فلم يحدث شيء من ذلك . فان « ابرهيم لينكان » رجع الى كرسيه وانصرف الى أعماله العادية في مكتبه . لان هذه لم تكن المرة الاولى التي ترفض فيها أوامره في عهد رئاسته ويعتصم بالسكوت . في الاشهر الاولى من الحرب الاهلية ،

عند ما كان كل رسول يأتي من ساحة الحرب يحمل الاخبار المكدرة للرئيس ، ولم يكن في واشنطون رجل واحد يعرف الساعة التي تصل فيها جنود القائد « لي » Lee الى أطراف المدينة ، ترك « لينكان » البيت الابيض واصطحب معه أحد أعضاء وزارته وذهب لزيارة القائد « مكليلان » Mcclellan في منزله . ومع ان العادات الرسمية تحظر على رئيس الولايات المتحدة ان يزور مواطناً في منزله ، فان « لينكان » لم يعبأ بتلك العادات في ذلك الوقت العصيب ، بل رغب في الوقوف على حقيقة أخبار الحرب من الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يطلعه عليها .

وعند ما وصل الرئيس ورفيقه الى بيت القائد لم يجداه هنالك فاضطرا أن ينتظرا ساعة كاملة . وأخيراً سمعا صوته في مدخل الدار فوثقا بأنه سيسرع على الفور لمواجهة الرئيس . ولكن « نابوليون الصغير » كان كثير العجب بنفسه ، ولذلك لم يتنازل على الاقل أن يحيي الرئيس تحية الترحاب به في منزله ، بل اجتاز به و برفيقه كأنه لا يوجد فى غرفة الاستقبال أحد وصعد في طريقه على سلم منزله الى غرفة نومه . و بعد ان انتظر الرئيس عشر دقائق — وعشرين — ونصف ساعة — من غير أن يرجع القائد أرسل اليه أحد الخدام ليذكره ان الرئيس ما برح ينتظره في قاعة الضيوف . ولكن الخادم لم يلبث ان رجع على الفور قائلا ، ان القائد يقول انه تعب جداً ولا

يمكنه استقبال الرئيس ومحادثته ،وفوق ذلك فقدنزع ثيابه وهو يريد أن ينام ويستريح!

وقد تمكن رفيق الرئيس بعد العناء الشديد ان يضبط ثائرة غضبه أمام الخادم ولكنه لم يخرج من المنزل مع رئيسه حتى صرخ والزبد يتطاير من فمه ، وقال للرئيس : « ان هذه الاهانة لا تطاق ! ان هذا القائد الزدىء يجب أن يعزل في الحال من قيادته ! » فوضع « لينكلن » يمينه على كتفي رفيقه الثائر ، وقال له بهدوء ورزانة وهو يشير الى حصان « مكليلان » المربوط امام بيته : « هنالك سأمسك الحصان « لمكليلان » اذا كان انتصارنا موقوفاً عليه . »

وقد قام في العالم كثيرون غير لنكلن » من الزعماء الذين ترفعوا عن الانتقام لذواتهم ممن تنقص كرامتهم ويعمد الى اهانتهم الشخصية فاظهروا بذلك أوضح علامات العظمة الحقيقية: ولكن يسوع قد فاق جميع عظماء الارض من هذا القبيل . فقد عرف ان الصفارة تعاقب نفسها بنفسها . وان الجزاء الحق من جنس العمل . فالرجل الدنىء لا يكون دنيئاً الا لنفسه . والقرية التي رفضت ان تقبله لم تكن في حاجة الى النار لتحرقها ؛ لانها برفضها له نالت قصاصها العادل الذي تستحقه . فلم تصنع فيها العجائب . ولم يشف المرضى ، ولم يطعم الجياع ، ولم ينل الحزانى الفقراء تعزيته ــ وكل هذا شر من النار . أما هو فقد نسي الحادثة في الحال . وانصرف الى العمل الكبير الذي جاء من جرائه الى الارض .

* * *

قد اساء علماء اللاهوت كثيراً الى جمال حياة يسوع بزعمهم انه قد عرف جميع الحوادث التي جرت في حياته منذ ولادته — وان السنوات الثلاث التي قضاها في الخدمة العمومية كانت اشبه بتمثيل دور على مسرح الحياة حفظه الممثل جيداً قبل ان اقدم على تمثيله من غير ان يعير المصائب والمتاعب التي تقدم امامه اقل اهتمام . ولكن اية قيمة لمثل هذه الحياة ؟ اوأي أثر تحدثه وقائعها في نفوس الناس ؟ فيا ايها القارىء العزيز الذي يطالع هذه الكلمات ان لك ولا شك عقيدتك الخاصة بيسوع ، ولكاتب هذه السطور عقيدته . ولكن هلمَّ بنا نضع جميع عقائدنا الموروثة عن الجدود جانباً الى اجل قريب ، من غير ان ننظر اليها الا بالاحترام والاكرام وندرس قصة المعلم الصالح كما تسردها لنا الاناجيل البسيطة — صبي فقير ، يترعرع في عائلة عامل حقير ، ويقضي معظم اوقاته عاملاً في دكان النجارة ؛ يشعر بدماء القوة تجري في عروقه رويداً رويداً ، فيبدأ في بسط نفوذه على جيرانه ، ويختار لنفسه تلاميذ من عامة الناس ، ويحتمل المقاومة والهزء والسخرية والموت على الصليب صابراً صبر عظماء الرجال . ولكنه يؤلف لنفسه جمعية راسخة المبادىء صحيحة الغاية حتى ان الموت نفسه كان مقدمة لسيادتها في حياة العالم اجمع ! هذه خلاصة ترجمة يسوع مجردة عن زخارف النظريات اللاهوتية المتضاربة وهي توضح لنا اعظم

الاعمال التي رآها الانسان في حياته على الارض ! وسيقتصر بحثنا في هذا الكتاب على هذه المبادئ. الاولية لحياة المعلم الاكبر . فاذا تصدى لنا بسبب عملنا هذا بعض المنتقدين بحجة اننا حصرنا كل اهتمامنا في شرح طبيعة يسوع البشرية واعرضنا عن البحث في طبيعته الالهية ، فنحن نعترف مقدماً : أولا ، اننا لسنا من رجال اللاهوت ، وثانياً ان مكاتب العالم ممتلئة بالمؤلفات اللاهوتية التي تفيض عن حاجة الجماهير المسيحية وتزيد عمق الاسرار التي تحول بينهم وبين ادراك حقيقة يسوع المسيح. ان الوفا من المجلدات قد كتبت وتكتب في كل يوم لتبرهن ان يسوع هو ابن الله ، ونحن نعتقد ان لنا ملء الحق ان نذكر أبداً ان اللقب المحبوب الذي اطلقه يسوع على نفسه سحابة حياته على الارض هو «ابن الانسان» وهكذا نود ان نقدمه للناس .

كانت الناصرة التي ربي فيها يسوع قرية حقيرة في مقاطعة صغيرة . وكان الناس في المدينة العظيمة اورشليم يهزأون بالناصرة وابنائها وعاداتهم القديمة في اللباس والكلام وجميع التصرفات العمومية . ولذلك قالوا بصوت واحد عند ما سمعوا نبيًا جديداً في الناصرة ! « وهل يخرج من الناصرة شيء صالح ؟ » وكأنهم أرادوا بهذا السؤال القضاء على كل دعوى تصدر من النبي الجديد .

وكان الجليليون يعرفون بكل ما يوجه اليهم ابناء اورشليم من الاحتقار ولكنهم قلما كانوا يعبأون بذلك . فقد كانت الحياة سهلة

جداً عليهم وكانت وسائل المعاش والافراح موفورة أمامهم فالشمس تشرق في كل يوم ، والارض مثمرة ، والمواشي كثيرة وفي وسع كل انسان ان يحصل على حاجاته راضياً مغبوطاً . وكان الوقت متسعاً لتبادل الزيارات ورؤية الاهل والاصحاب . وكانت العائلات في الناصرة تذهب إلى المتنزهات العمومية كما يذهب الناس اليوم في جميع انحاء العالم ؛ وكان الشبان والشابات يسيرون معاً في نور القمر ويتمتعون بثمار المحبة الطاهرة في الربيع الجميل . وكان الاولاد يفرحون بألعابهم المتنوعة ويباهون بضروب الشجاعة في في القفز والجري وغير ذلك من العاب الاحداث . وكان يسوع ، الصبي العامل في دكان النجار ، الزعيم الاول بين أولئك الاولاد .

وسنشير في موضع آخر الى هذه الاختبارات الجميلة التي اجتازها يسوع في صبوته فعملت على تسليحه بجسد نشيط قوي قاده ظافراً في جميع اعماله الجليلة . ونحن في هذا الكتاب الصغير قلما يهمنا سرد الحوادث في مركزها من تاريخ وقوعها مثلما يهمنا ان نوردها كلما دعت اليها الحاجة. فنحن لم نتقيد بالتاريخ المعروف الذي يبدأ بترانيم الملائكة في بيت لحم وينتهي ببكاء النساء على الصليب ولذلك سنختصر في ساحة حياته الحافلة بالحوادث الجليلة ذهاباً وإياباً فنقتطف هذه الحادثة وتلك الحادثة ، هذا المثل الصغير وتلك القضية الكبرى — ونقدم كل ذلك معاً لتأييد موضوع كتابنا . فنحن

لا نريد ان نكتب ترجمة حياة بل نرغب في رسم صورة . ولذلك نضع في هذا الفصل الاول من الكتاب كل ما اخذناه من حوادث حياة يسوع في السنوات الثلاثين الاولى من عمره على الارض التي حدثت فيها الاعجوبة الخالدة في حياته — وهي يقظة القوة الروحية السامية في اعماق فكره

الاعجوبة الخالدة !

أقامت مدينة نيويورك مرة وليمة كبرى لاكرام «لويد جورج» رئيس الوزارة البريطانية ، ودعت اليها رهطاً من عظماء المدينة. وقد بلغ عدد المدعوين مئتي شخصاً . وكانت المآكل لذيذة والخطب بليغة مؤثرة . ولكن الذي يثير خيال التأمل في تلك الوليمة لم يكن الا في درس الرجال الذين تكلموا على المائدة . فقد كانوا من أعظم ذوي النفوذ في جميع أنحاء العالم . ومن كانوا يا ترى ؟ ففي الطرف الواحد من سلسلة المتكلمين كان يجلس رجل مالي يحتاج العالم بأسره الى ثروته — وهو ابن لقسيس فقير كان يعيش في احدى القرى الفقيرة وكان يجلس الى جانبه صاحب اكبر جريدة في العالم وقد جاء من مزرعة صغيرة في ولاية « ماين » وعند ما وصل الى نيويورك لم يكن في جيبه سوى بضعة ريالات . ثم يأتي بعده رئيس شركة الصحافة المتحدة — وقد كان في حداثته كاتباً بسيطاً في ادارة

احدى الجرائد الصغرى في الريف . وفي وسط الجميع كان الصبي الذي عاش في بيت فقير في مزرعة حقيرة في بلاد الانكليز . فصار بجده واجتهاده أعظم سياسي في الامبراطورية البريطانية ورئيساً لوزارتها في أعظم أزمات التاريخ الانساني .

فمتى وكيف وأين حدثت الاعجوبة الخالدة في حياة هولاء الرجال؟ في أية ساعة ، في الصباح أو بعد الظهر ، أو في الليالي الطويلة الهادئة دخل نور الفكر في عقل كل منهم فأنار بصيرته ورفعه عن مستوى أقرانه في مزرعته الصغيرة ، وجعل حياته أعظم من حياة أبيه ؟ متى جاء هذا الفكر الى يسوع ؟ هل كان ذلك عند الصباح وهو جالس على مقعد النجار يراقب الشمس وهي ترسل أشعتها الذهبية الى التلال الجميلة ؟ أم كان في الليل العميق عند ما كان يترك العائلة بعد أن تنام ويسير وحيداً في هدوء الليل متأملا في الكواكب والنجوم ؟ ما من أحد يعرف ذلك . وكل ما نستطيع أن نثق به ان شعوره بلاهوته قد جاء الى قلبه وهو بعيد عن الناس في حضرة الطبيعة التي كان يعشقها ويقضي أيامه قريباً منها .

ان النصف الغربي من الكرة الارضية غني بوسائل التقدم المادية وثمرات الحضارة المادية ، ولكن جميع الاديان العظيمة جاءت من الشرق . فان الصحارى الكبيرة رمز صحيح للغير المتناهي ؛ والمسافات الشاسعة التي تفصل الناس عن النجوم تملأ النفس البشرية

عجبًا واحترامًا . ففي ساعة لا يعرفها أحد ملأت العظمة قلبه فأدرك للحال انه أعظم من الناصرة .

وكان في البلاد شاب آخر في نفس الوقت ينمو ويتقدم حتى ذاعت شهرته بين الخاص والعام وتقاطر الناس من جميع البلدان لسماع كلامه . وكان اسمه يوحنـا . ونحن لا نعرف مقدار اختلاط الولدين أحدهما بالآخر في سن الصبا ، ولـكن يسوع ، وهو الصغير ، كان ينظر أبداً بعين الاعجاب الى نسيبه الشجاع الذي لم يكن يخشى في سبيل الحق لومة لائم . ومن كل هذا نستطيع أن نتصور السرور الذي استولى على يسوع عند ما وصلت اليه أخبار نجاح يوحنا في العاصمة . فقد كان الناس يتحدثون به وبأعماله الجليلة في جميع المحافل والاندية . وكان الاسياد والاغنياء يسيرون من المدينة العظيمة الى الاردن ليسمعوا انذاراته ومواعظه ؛ وكثيرون منهم قبلوا دعوته وتابوا واعتمدوا منه معترفين بجميع خطاياهم . وقد ذاع صيته في سائر أنحاء البلاد وكان الناس يتناقلون أقواله الصائبة الشديدة فرحين . وليس شك في ان تجار الناصرة الذين كانوا ينزلون الى أورشليم في كل فرصة كانوا يرجعون ويحملون معهم الـكثير من أقوال المعمدان وما كان يجريه من الاعمال العظيمة . فكان الذين يسمعون بذلك يهزون رؤوسهم ساخرين ، لانهم عرفوا يوحنا صبيًا صغيراً ولذلك لم يكونوا قادرين أن يصدقوا عنه الحوادث التي يرويها الناس الذين لا يعرفون شيئًا عن نسبه . ولـكن الناصرة لم تخل اذ ذاك من رجل

فرد يؤمن من أعماق قلبه برسالة النبي الجديد الذي جاء بشيراً بالتوبة واقتراب ملكوت الله . ولذلك جاء اليوم الذي هجر فيه دكان النجار ، وخرج القول في الناصرة ان يسوع النجار قد ترك دكانه وذهب الى أورشليم الى يوحنا ليعتمد منه .

وقد اقتبله يوحنا بمزيد الترحاب . وقد كان يسوع في أثناء حفلة العماد ، وفي كل ذلك اليوم في أسمى حالات الرفعة الفكرية والطهارة النفسية . فلم تعرض في سماء فكره أقل غيمة من غيوم الشك أو تثبيط العزيمة . فقد عزم في الحال على القيام بنفس الاعمال العظيمة التي قام بها يوحنا ؛ وشعر بالقوة العظيمة تتحفز للوثوب في قلبه ، وصار بجماع نفسه يتوق الى الساعة التي يبدأ فيها عمله . وعند غروب شمس ذلك اليوم المجيد غربت الشجاعة معه وحلت الشكوك والمخاوف محلها . وقد وصف الكتاب ذلك بثلاث تجارب يقوم بها الشيطان لاسقاط يسوع في حبائله . ونحن لا نود في بحثنا الحاضر أن نطيل الشرح في حقيقة الشيطان . فنحن لا نعرف اذا كان يجب أن ينظر اليه كشخص ذي وجود حقيقي أو كمظهر من مظاهر الرغبات الشريرة الجامحة . فان التجربة بدونه تكون أكثر وقعاً في النفس وأقرب لشكوكنا ومصائبنا . وسواء حدثت التجربة بواسطته أم بدون واسطته فان الغاية منها ظاهرة .

فهي تعني أن يوم الثقة العظيمة بالنفس قد مضى ، وجاءت أيام الخوف من الفشل والشك في النجاح . ومن بين جميع عظماء الارض

استطاع أن ينجو من آلام هذه الايام ؟ فكم هو في عقيدتك عدد الايام والاسابيع التي تعذبت فيها نفس « لينكان » قبل ان حصل على المركز الذي تاقت اليه نفسه ؛ فقد شعر في أعماقه بقوته العظيمة ، ولكن كيف وأين السبيل لظهور هذه القوة ؟ هل يجب أن يقضي عمره راكبًا في عربات المزارع الحقيرة وراضيًا بالعيش في منزله الصغير ومكتبه الفقير يحل الخلافات الدنيئة التي كانت تقوم بين أبناء الحقول ؟ أم لعله لم يفهم حقيقة دعوته في الحياة ؟ وهل كان رجلا عاديًا بين مواطنيه ومحاميًا ذكيًا وأستاذاً بارعًا في القصص المجونية ؟ كل من عرف « لينكلن » في عهد صبوته يشهد لنا بأنه كان كثير الصمت يعشق العزلة والتأمل في عجائب الطبيعة . فما هي الافكار الرصينة التي خطرت له في عزلته وصمته ؟ وما هي المخاوف التي أرعبت قلبه من الفشل الذي قد يصيبه في جهاده ؟ وما هي الثورات التي اشتعلت نيرانها في فكره ضد الحدود الضيقة التي ولد فيها ؟

أربعون يومًا قضاها يسوع في البرية وحيداً أمام شكوكه ومخاوفه. وليس أسهل على ذي الخيال الصحيح من تصور الجهاد العظيم الذي قام به المعلم الصالح في تلك الوحدة المرعبة القاسية . فقد هجر صناعة محترمة بين الشعب الذي عرفه ووثق بذكائه ومهارته في حرفته — وماذا طلب لقاء ذلك ؟ أأن يقضي عمره واعظًا هائمًا على وجهه يخاطب الجماهير الذين لم يسمعوا به قط في حياتهم ؟ وبأي موضوع

كان يجب أن يحدثهم ؟ وكيف يستطيع ، ولا علم لديه ، أن يهتدي الى الكلمات التي يعبر بها عن رسالته ؟ أين يجب أن يبدأ ؟ ومن يصغي الى كلامه وهو النجار الحقير وابن ناصرة الجليل ؟ وهل يصغي أحد اليه لو خرج من عزلته وشرع في الكلام ؟ ألم يرتكب خطأ فاضحاً بترك أعماله وتعريض ذاته لمثل هذه المهمة الشاقة ؟ قد أدرك الشيطان كل هذا وكما يقول الكتاب جاء اليه يجربه قائلاً : « أنت ولا شك جائع ؛ والحجارة كثيرة في هذا المكان . فحولها الى خبز اذا كنت قادراً وأشبع معدتك الخاوية . » — وهذه هي تجربة النجاح المادي . فقد كان جائعاً بالحقيقة ، ولم يكن من الضروري أن يظل جائعاً فقد كان يعرف مهنة حسنة ؛ وكان يعرف انه أقدر من يوسف على ادارة أعمال دكانه . ولذلك كان يقدر أن يرجع الى الناصرة ويحصر جهوده بعمله فيؤسس لنفسه مستقبلا صالحاً ويعيش بقية عمره ناعم البال مطمئن القلب ويحصل على ثروة طائلة . ولكنه لم يفعل ذلك .

ثم يجيء الشيطان اليه ثانية ويأخذه الى جبل عال ويريه جميع ممالك العالم ، قائلاً له: «اني أعطيك جميع هذه اذا كنت تخضع لي.» وكان يستطيع لو أراد أن يذهب الى أورشليم وينخرط في سلك الكهنوت ، فينال بذلك الشهرة والثروة . وكان يقدر بهذا العمل أن يرضي طموح قلبه الى النجاح ويقوم بالكثير من الاعمال الصالحة. أو انه كان على الاقل أن ينخرط في سلك الجندية ويعمل على التقدم

والبلوغ الى أسمى الوظائف العمومية . فقد كان التذمر كثيراً بين الناس من الحكام وكان في وسعه أن ينتهز الفرصة وينادي بحرية العمال والفقراء والفلاحين الذين كان يعرفهم جميعاً لانه كان واحداً منهم وكانوا لا يترددون لحظة عن السير ورائه حيث أراد .

وقد ظل هذا الجهاد الداخلي على ثورته في أعماق يسوع اربعين يوماً واربعين ليلة ، ولكنه بلغ في نهايته الى النصر المبين الى الابد . ففي هدوء تلك الصحراء امتلأ قلبه اخيراً بتلك الثقة العظيمة التي هي روح الزعامة الحقيقية في الوجود — فآمن من صميم نفسه أن روحه قد اتصلت بروح الله ، وان الله قد ارسله الى العالم ليقوم بالعمل الكبير الذي لم يكن في العالم رجل غيره ليستطيع القيام به — ولو تركه لظل في عالم الكتمان الى الابد . ومهما بالغت في تعظيم هذا المشهد العظيم من تجربة يسوع ، ومهما أطنبت في القول بأن الله خاطبه بما لم يخاطب به غيره من المعلمين — فانت عند التحقيق لا تنطق الا بجزء من الحقيقة . لان صوت الله يتكلم بغير انقطاع مع الناس ، ولا يسمعه الا الصوفي الدقيق الخيال البعيد التصور . فالزعامة الحقيقية لا تصل الى قنن النجاح بدون الصوفية . وما من عمل جليل قام به كبير فى العالم من غير أن يجرأ على الايمان بان في اعماقه قوة فائقة مستقلة عن جميع الظروف والاحوال . وكل من يختار الاعمال السهلة فى الحياة يخون نفسه ويبيع طموحه ورغبته فى المغامرة للنجاح . . . . فاذا لم يكن هذا هو معنى الاربعين يوماً فى

البرية ، وإذا لم يكن يسوع قد وقع فى تجربة حقيقية كادت تنتهي برجوعه الى دكان النجار فى الناصرة ، فان الاربعين يومًا لم يكن لها اقل اهمية فى نظرنا . ولكن التجربة كانت حقيقية ، وقد كان الفوز فيها حليف يسوع . فان الفتى الذي كان قبل الذهاب نجاراً فى دكان يوسف قد ظل فى البرية ورجع عوضاً عنه رجل كامل القوة يستطيع دون الضعيف الذليل الذي يصوره الناس مهانًا وضيعًا ان يقول بأعلى صوته : « ثقوا، فقد غلبت العالم. » هنا بدأت عظمته الحق . ولكنه كان عليه أن يجتاز مراحل كثيرة في تقدمه بالخيال والثقة بالنفس . ومن تلك الساعة كان الناس الذين ينظرون الى وجهه يشعرون بسلطان الرجل الحقيقي الذي وضع اساس منزله الروحي على الصخر وهو واثق بكل عمل يعمله أو كلمة تخرج من شفتيه

اجل ، ان النجاح يثير في النفس ما كمن من طموحها؛ ولذلك يحملنا الى السؤال المتواصل ماذا وكيف . لذلك نسأل ماذا كانت العناصر الاولية في قوته وسيادته على النـــاس ؟ وكيف حدث أن صبيًا من قرية حقيرة يصير زعيماً عظيماً بل اعظم الزعماء ؟

فقد كان له قبل كل شيء صوت الزعيم وطريقته، ومغنطيسيته الشخصية التي تولد الامانة وتسترعي الاحترام ، وقد ظهرت بداءة ذلك فيه وهو بعد في فجر جهاده . وكان يوحنا أول من شعر بذلك. ففي اليوم الذي نظر فيه يوحنا من المياه حيث كان يعمد التائبين

ورأى يسوع على حافة النهر اعترض قائلاً : « انا محتاج ان اعتمد منك وانت تأتي الي ؟ » فقد عرف الرجل الصغير الرجل الكبير بحكم القلب الداخلي .

كثيراً مانتكلم من المغنطيسية الشخصية حاسبين ان هنالك سراً عظيماً يحيط بها — أو انها هبة سحرية ينالها رجل بين الالوف بطريقة سرية عجيبة . ولكن المغنطيسية الشخصية بسيطة جداً ، فان العنصر الاولى فيها هو الاخلاص المتناهي — او الايمان العظيم بحقيقة العمل الذي يقوم به الانسان . « قال امرسون » Emerson ، « ان حقيقتك مستترة وراء كلماتك التي تنطق بها مرتفعة بهذا المقدار حتى أني لا استطيع ان أسمعها . » وكان « ميرابو » Miraboau يتأمل في وجه « روبسبيار » Robespierre الفتى مرة ، فصرخ قائلاً : « ان هذا الفتى سيكون له شأن عظيم في العالم فهو يؤمن بكل كلمة يقولها . »

اكثر الناس يأتون الى العالم منقسمين على ذواتهم في افكارهم فهم يترددون في تصديق ما يقومون به من الاعمال او يتفوهون به من الاقوال ، ويحارون اذا كانوا يسيرون على طريق الضلال ولا يعلمون . وهم في الغالب يصنعون اعداءهم بايديهم ويترقبون بفارغ الصبر ان يسمعوا صوتاً نافذاً يصرخ بهم ويقول : « هلموا الي فاعطيكم الحق ، والسعادة والخلاص . » كلنا نتوق الى الحق ، كلنا نتعشق السعادة ونحن الى الخلاص وقد اجتمع في شخص

يسوع المحبوب كل هذا ولذلك اجمعت القلوب على محبته .

لاجل هذا نرى زعماء الشعب الناجحين تحركهم هـذه الرغبة فيتركون أعمالهم ويسعون الى المعلم . لم يمض على وجود يسوع في أورشليم يوم أو يومان عند ما سمع بابه يطرق في سكون الليـل . وعند ما فتحه وجد نيقوديموس ، أحد زعماء المدينة النافذي الـكلمة ، والعضو العامل في السنهدرين ، المجلس الأعلى للامة اليهودية . وكل منا نحن العائشين في هذا القرن العشرين يستطيع أن يتصور أهمية هذا الاجتماع بين المعلم الصغير المجهول والرجل العظيم الذي يتردد بين الشك والايمان . وقد كان وقوع الزعيم الصغير في الخطأ أمراً سهلاً جداً. فان يسوع لشدة فرحه بهذه الزيارة كان يجب أن يظهر شعوره نحو الوجيه الـكبير قائلاً : « انني أقدر زيارتك الثمينة حق قدرها أيها الشيخ الجليل . فأنت زعيم عظيم في قومك ، وأنا شاب في مقتبل العمر أجهد النفس في السير الى الامام في عملي . ولذلك يسرني جداً أن أراك مع وافر علمك وناضج اختبارك تأتي الى منزلي . فهل لك يا سيدي أن تنصحني بحكمتك الى أفضل الطرق التي يجب أن أسلكها لـكي أصادف النجاح الذي تطمح اليه نفسي ؟ » ولـكن لم يحدث شيء من ذلك في اجتماع الرجلين ـ لأن يسوع لم يبذل أقل جهد لاقناع نيقوديموس بالانخراط في سلك أتباعه ومريديه . بل خاطبه بملء الصراحة العجيبة المدهشة قائلا :

« الحق الحق أقول لك يا نيقوديموس ، انك اذا لم تولد ثانية

لا تستطيع أن ترى ملكوت الله . » وبعد بضع دقائق يضيف الى ذلك قوله ، « اذا كنت قد خاطبتك بلغة الارض ولم تؤمن ، فكيف تؤمن اذا خاطبتك بلغة السماء ؟ »

لم ينخرط الضيف الكبير في سلك التلاميذ ، ولم يسأله يسوع أن يفعل ذلك ؛ ولكنه لم ينس سحابة حياته التأثير الذي أحدثته فيه ثقة الشاب العظيمة بنفسه . وبعد هذه الحادثة ببضعة أسابيع كان الجموع يسمعون كلمات المعلم على شواطيء بحر الجليل وتتحرك قلوبهم بنفس العاطفة التي اختلجت في قلب نيقوديموس . فقد كانوا متعودين على خطب الكتبة والفريسيين — الخطب الطويلة المملوءة بالمجادلات العقيمة والآيات العديدة من كتب الناموس والانبياء . ولكن هذا المعلم كان يختلف عن بقية المعلمين . فانه لم يستشهد بأقوال القدماء ؛ بل كان يقدم كلامه كأنه الحجة التي لا تحتاج الى دليل . وكان يعلم « كمن له سلطان وليس كالكتبة والفريسيين . » ثم نرى بعد ذلك برهاناً أنصع ودليلاً أوضح على ما تستطيع الثقة العظمى بالنفس أن تحدثه في القلوب . فقد تعاظم نفوذ يسوع في حياة الامة حتى ان الزعماء والرؤساء خافوا أن تتقوض دعائم سلطتهم أمام عواصف تعاليمه وأقواله الجديدة ، ولذلك أرسلوا فرقة من الجنود لالقاء القبض عليه . وقد اختاروا جنود هذه الفرقة من الرجال الأشداء المجربين في الحرب والكفاح . ولكنهم رجعوا بعد هنيهة بخفي حنين .

فسألهم قائدهم الكبير قائلاً، « ماذا حدث بكم ؟ لماذا لم تحضروا الرجل كما أمرتكم ؟ »

أما الجنود فأخذتهم الدهشة لما أصابهم من الفشل ولما رأوه من غضب سيدهم، ولذلك لم يستطيعوا أن يجيبوا في خيبتهم جواباً معقولا . بيد انهم انتحلوا لانفسهم عذراً قائلين : « نلتمس منك أيها القائد المعظم أن ترسل جنوداً غيرنا يقبضون على هذا الرجل . فنحن لا نقدر أن نقوم بهذه المهمة ، لاننا لم نسمع رجلا يتكلم بمثل ما يتكلم به هذا ! »

كان الجنود مسلحين ؛ ولم يكن لدى يسوع من وسائل الدفاع سوى صوته وطريقته الوديعة في التعليم ، وقد كان هذا كافياً لوقايته من كل خطر . لان الزعيم الحق في أي جمهور وتحت جميع الظروف يظل بعيداً عن الاخطار . فهو بقوة ايمانه بذاته يأمر والناس يطيعونه ولا يخالفون له أمراً .

أجل ، ان ثقة يسوع بكل عمل من أعماله كانت القوة الاولى والعظمى في ما صادفه من النجاح العجيب . وكانت القوة الثانية منحصرة في مقدرته على اختيار الرجال ومعرفة القوى العجيبة المختبئة في أعماق شخصياتهم . وليس شك فى ان نيقوديموس أخذته الدهشة عند ما عرف أسماء الاثني عشر رجلا الذين اختارهم يسوع ليكونوا شركاء له في عمله العظيم . شركاء ونعم الشركاء ! فلم يكن بينهم رجل واحد معروف على الاقل . ولا رجل واحد صادف نجاحاً في عمل من

أعمال الحياة . بل كانوا مجموعة صيادين فقراء وتجار صغار في قرى حقيرة ، وعشار واحد ـ من الطبقة التي كان جميع الناس يئنون من مظالمها ويكرهونها . شركاء ونعم الشركاء !

وليس بين جميع أعمال العالم مثال للنجاح العظيم الذي تصادفه القوة التنفيذية في الزعيم كما نشاهد في هذه الجمعية الحقيرة في نشأتها . خذ « متى » العشار مثلاً . فمع انه كان يشغل وظيفة مكروهة من سائر طبقات الشعب فان عمله كان يعود عليه بالارباح الطائلة . ولذلك كان يتمتع بثروة كبيرة قل من كان له مثلها بين معارفه وجيرانه ؛ وقد كان ولا شك ينفق اكثر أوقاته في أعماله المالية ولم يكن لديه متسع من الوقت للامور الخيالية والنظريات الفارغة . وقد أوردت لنا الاناجيل خبر انضمامه الى التلاميذ بجملة واحدة :

« وفيما يسوع مجتاز دعا متى »

اعجوبة مدهشة ! « دعا متى » بدون جدال ولا بحث ولا ترغيب ولا تشويق ! فان الزعيم الصغير كان ولا شك اظهر لمتى المنافع التي سيصيبها من ترك عمله واللحاق به بقوله : « انت بالحقيقة ناجح في عملك الحاضر وتحصل منه على ارباح كثيرة . ولا اقدر ان اقدم لك من المال ما أنت حاصل عليه الآن . بل قد لا تحصل على شيء مما أنت تربحه في حياتك . بيد ان ارجح أنك ستصادف لذة عظيمة في انضمامك الينا لاننا عازمون على القيام بعمل عظيم . »

ولو سمع متى مثل هذه المحادثه لاجاب على الفور انه سيفكر في القضية ولما سمع العالم باسمه قط .

بيد ان يسوع لم يعبأ بمثل هذه الاحاديث الصغيرة . ولكنه فيما هو مجتاز دعا متى ، فلبى متى دعوته في الحال . وما من حاكم عظيم في العالم يسمع هذه العبارة من غير أن يقول على الفور أن صاحبها هو سيد نافذ الكلمة بالحقيقة .

فقد ولدت مع يسوع المقدرة على رؤية القوة الكامنه في الرجال الذين قلما شعروا بمثلها انفسهم . فقد حدث في احد الايام وهو قادم الى احدى المدن ان الجموع ازدحمت حواليه . وكان في المدينة رجل غني اسمه زكا : وكان قصير القامة وافر الحكمة والذكاء في اعماله حتى انه جمع ثروة طائلة عملت على جعله ممقوتاً من جميع الناس . وقد حملته رغبته في رؤية الزائر الكبير الى تسلق شجرة عالية لكي يستطيع أن ينظر المعلم بين الجماهير . ولكن شد ما كان دهشه عندما رأى يسوع يقف تحت الشجرة و يأمره بالنزول منها قائلاً « أود أن اتغدى في بيتك اليوم . » فانقض هذا الخبر انقضاض الصاعقة على الجمع . ولذلك هم بعض المعجبين بيسوع أن يتقدموا اليه ويخبروه عن مركز الرجل الذي يخاطبه وتعدياته الكثيرة على اموال الناس. وكانوا يقولون بعضهم لبعض يستحيل أن يقع المعلم بغلطة كهذه و يزور رجلا مثل زكا . ولكن اعتراضاتهم ذهبت عبثاً . فقد رأوا فى زكا يهودياً طماعاً كاذباً ؛ ولكن يسوع رأى فيه رجلا

ار يحياذا شعور حساس ومحبة عظيمة للحق والعدل وغير ذلك من الصفات الكريمة التي كانت تترقب من يهتدي اليها ويوقظها من غفلتها في اعماق قلبه . ومثل هذا جرى مع متى — فان الجموع لم يروا فيه الا العشار المحتقر الذي يسرق اموال الحكومة والشعب . ولكن يسوع رأى فيه الكاتب القدير الذي وضع الكتاب الخالد الى الابد .

وهكذا قل عن « قائد المئة » ، الشخص - المجهول الاسم في تاريخ المسيحية — الذي يتوق جميع رجال الاعمال الى معرفته فقد احضره التلاميذ الى المعلم معتذرين وقائلين : « ان هذا الرجل يخدم الحكومة الرومانية ، وقد توبخنا على احضاره اليك . ولكنه بالحقيقة رجل فاضل جداً ، وهو اريحي همام يحترم ناموسنا وديانتنا. » ولكن يسوع والقائد الروماني أدركا عند النظرة الاولى القوة الكامنة في كل منهما التي تربط احدهما بالاخر ولذلك قال قائد المئة :

« يا معلم ، ان خادمي مريض جداً ؛ وأنا لا أرى من حاجة الى ازعاجك بزيارة منزلي . فاني أعرف وفرة الاشغال المحيطة بك لانني سيد مثلك ولي جند تحت يدي : أقول لهذا اذهب فيذهب، ولذلك ائت فيأتي ؛ ولعبدي افعل هذا فيفعل . لذلك قل كلمة فقط فيبرأ خادمي . »

فأجاب يسوع ونور الاعجاب والفرح يفيض من وجهه ، « انني لم أجد مثل هذا الايمان قط . » فقد عرف القائد قوته العجيبة . وكان

كلاهما حاكما تنفذ أحكامه في دائرة عمله ، وكانت لـكل منهماقوته في عمله وقضاياه الخاصة به التي يجب أن يحلها بمقدرته ؛ ولذلك تكلما لغة واحدة لم يفهمها أحد سواهما .

وبعد ان جمع يسوع تلاميذ وألف بهم جمعيته لم يبق عليه الا أن يعلمهم ويدربهم على العمل . وههنا نرى القوة الثالثة التي عملت على نجاحه ـ وهي صبره العظيم الذي لا حد له . فقدصادف صعوبات كأداء في تعليم تلاميذه لانهم كانوا ثقيلي القلوب والافهـام وبالرغم عن أتعابه واسهاره الطويلة مدة ثلاث سنوات متواصلة فانهم ظلوا جاهلين حقيقته قلما يدركون الغاية من أقواله وأعماله . وقد طالما وبخهم وأنذرهم ووعظ بهم وكأنه ينادي من لا حياة له .

وقد ظل التلاميذ رغماً عن تعاليم معلمهم الـكثيرة يعتقدون انه جاء ليزعزع أساسات المملـكة الرومانية ويعيد للامة اليهودية أمجاد داود وسليمان ويقيم نفسه ملـكا على أورشليم . ولذلك كان الجدال حامياً بينهم في من يكون منهم الاول والمتقدم في هذه المملـكة . وقد حملت هذه الرغبة اثنين منهم وهما يعقوب ويوحنا الى ارسال أمهما لترجو من المعلم أن يجلس ابنيها واحداً عن يمينه والآخر عن يساره في مجده . وعند ما سمع العشرة بما فعلته أم يعقوب ويوحنا غضبوا وبدأوا يتذمرون فيما بينهم ؛ ولـكن يسوع لم يخسر شيئاً من صبره على صغارة عقولهم بل حملهم بطول اناته حتى النسمة الاخيرة .

وكان يعتقد ان الطريقة الفضلى للحصول على ايمان الناس بل كائنة بأن تؤمن بهم ، ولم يتحول عن هذه العقيدة الكبرى في الزعامة الحقيقية سحابة عمره .

على ان سمعان كان اكثر جميع التلاميذ مشاغبة وعدواناً . فانه لم يكن يفتر لحظة قط عن اعطاء النصائح والتصريح بشجاعته وقوة ايمانه . ولذلك قال له يسوع مرة ، « اذهب عني يا شيطان ، فأنت لا تفتكر بما لله بل بما للناس . » وقال له في اليوم الاخير ، « قبل أن يصيح الديك في الغد تنكرني ثلاث مرات . » فأثارت هذه الكلمات قلب بطرس ولذلك صرخ بأعلى صوته انه وان قتلوه فهو لا ينكر معلمه ! ولكن يسوع ابتسم ولم يزد على ذلك كلمة قط . وفي صباح اليوم التالي أنكر بطرس يسوع كما سبق فأخبره . . . . لو حدث مثل هذا مع زعيم أصغر من يسوع فانه ولا شك كان طرد بطرس من خدمته ، وقال له : « قد أفسحت لك المجال غير مرة أيها الرفيق ، ولكنك لم تتعلم . وانه ليسوؤني أن أطردك من خدمتي ولكنني مضطر الى ذلك لانني أحتاج الى رجال يمكن الاعتماد عليهم . » ولكن يسوع كان يعرف ما يندر أن يعرفه غيره من الناس بأن الانسان في الغالب لا يرتكب الجريمة أو الغلطة الواحدة مرتين . ولذلك لم يوبخ هذا الصياد الضعيف المتردد بكلمة قط . بل على العكس من ذلك رغب في تثبيت ايمانه المتزعزع بقوله له مرة . « أنت تدعى سمعان ، ولكن من الآن فصاعداً سيكون اسمك بطرس . »

(الصخرة) . في هذه التسمية شجاعة عظيمة ، بعد كل ما ظهر من سمعان ، ولكن يسوع عرف الرجل اكثر مما عرف هو نفسه . وقد خبر عار ذلك النكرات طبيعة سمعان كما يختبر الحديد في النار ، ومن تلك الساعة لم تعاوده شكوكه بل ظل ثابتاً في ايمانه حتى الصليب .

وفي الكتاب المقدس أمثلة كثيرة على القوة التنفيذية في الحاكم أو الزعيم . فقد اجتمعت في شمشون كل صفات الزعامة . فكان جميل الصورة ، قوي الجسد ، شجاعاً في جميع أعماله مسموع الكلمة من الجميع . ولم يقم في أمته رجل مثله اجتمعت لديه كل الفرص لتحرير بلاده من المضطهدين وايجاد مركز عظيم لنفسه . ولكن شمشون فشل في عمله وكان فشله ممزوجاً بالمرارة . لانه كان قادراً على اجتراح المعجزات لوحده ، ولكنه لم يكن أهلا للتنظيم والادارة. وقد شرع موسى في عمله في مثل هذه الحالة التي وجد فيها شمشون. ولكنه أراد أن يكون الكل في الكل ويفعل كل شيء لوحده ؛ حتى انه كاد يقع في هوة الفشل لو لم يخلصه حموه يثرون من المصيبة العظمى التي كان يسير اليها . فقد قال له هذا الشيخ الحكيم : «ليس ما تصنعه بحسن . فانك تكل أنت وهذا الشعب الذين معك أيضاً . لأن هذا الامر فوق طاقتك لا تستطيع أن تتولاه وحدك . »

وقد أصغى موسى الى نصيحة حميه واتخذ له شريكا أخاه هارون الذي كان قوياً في ما كان موسى ضعيفاً فيه . فكان يعاون أحدهما

الآخر في جميع الاعمال التي تمت على أيديهما ولم يكن أحدهما قادراً أن يقوم بها وحده .

وقد أصاب يوحنا المعمدان ما أصاب غيره من الزعماء الذين جاؤوا قبله . فقد كان قادراً على الهدم ولـكنه لم يقدر على البناء . وقد جذب الناس من جميع أقطار البلاد لسماع انذاراته وكانوا يتوبون عن خطاياهم و يعتمدون منه في نهر الاردن . ولـكنه لم يعرف ماذا يقوله لهم بعد التوبة ليعيشوا حياة سعيدة صالحة . وكانوا ينتظرون أن يسمعوا منه دعوة جديدة ينضمون اليها للعمل والخدمة ، ولـكنه لم يكن قادراً على التنظيم والادارة . ولذلك كان يتركه أتباعه يوماً فيوماً حتى اضمحل كل أثر لعمله المجيد الذي قام به . وقد كان عمل يسوع معرضاً لنفس النتيجة التي بلغ اليها عمل يوحنا . لانه بدأ بشارته وليس له نصف ما كان ليوحنا من الشهرة أو الاعوان . ولم يكن له من التلاميـذ سوى اثني عشر رجلا سادجاً بلا علم ولا معرفة ولا اختبار وبكثير من الضعف والرغبة في السيادة والصدارة . ولـكنه تمكن بعقيدته الثابتة بنفسه ، ومقدرته العجيبة في الاهتداء الى قوى النفوس الهاجعة في أعماق الناس ، و بما أوتيه من الايمان العظيم والصبر الطويل ، من تأليف جمعية عظيمة من أولئك الصيادين كان لها الفوز في جميع أعمالها . و بعد موته ببضع سنوات ، انتشر الخبر في عاصمة الامبراطورية الرومانية العظمى ان « الذين قلبوا العالم رأساً على عقب قد جاءوا الى ههنا أيضاً . » ولم ينقضِ الوقت الطويل على هـذه

الحادثة حتى اضطر الامبراطور الروماني الكبير أن يحني رأسه لتعاليم هذا النجار الناصري الحقير التي انتشرت بواسطة الصيادين والفقراء من عامة الناس . ؟

الفصل الثاني

رجل الفضاء

لم يكن المنظر غريباً على الجمهور . وفي هذا كل الغرابة !

كان الهواء قذراً فاسداً برائحة الحيوانات والناس المجتمعين يزحم بعضهم بعضاً . وكان الرجال والنساء يدوس بعضهم بعضاً ، وهم يصيحون و يتشاتمون . وكانت في الجانب الواحد من الدار الكبرى زرائب المواشي ؛ وفي الجانب الآخر أقفاص الحمام . وفي صدر الدار يقوم الكهان الطماعون والصيارفة السراقون يجلسون أمام طاولاتهم الطويلة التي كانوا يجمعون عليها كل فلس يحمله الزوار المساكين. ولم يكن يخطر لأحد ان مثل هذا المكان يمكن ان يكون بيت عبادة لله . بيد انه كان هيكل يهوه العظيم — والمركز الاكبر للديانة اليهودية . أما الجموع المزدحمة في ساحاته الكبرى فكانت ترى كل ما يجري فيه أموراً عادية لا تستحق أقل ملاحظة غريبة .

وفي هذا منتهى الفاجعة المدهشة .

وكان الشاب الناصري واقفاً في مكان منعزل عن الجماهير يتأمل في كل ما يجري أمامه من الحوادث الدنيئة باندهال لم يلبث أن تحول الى غضب شديد . فانه لم يتعود من ذي قبل على رؤية مثل هذه المشاهد. لانه لم يأت الى الهيكل الا مرة واحدة وهو بعد في الثانية عشرة من العمر ، عند ما أحضره يوسف ومريم ليسجلا اسمه في الهيكل كابن شرعي لهما . ولم يكن يذكر من حوادث تلك الزيارة سوى محادثة طويلة جرت بينه وبين أحد الشيوخ في غرفة هادئة . فهو لم يشهد الضوضاء في الساحات الخارجية ، أو انه رآها ولم تحدث التأثير الفعال في فكره الصغير في عهد فتوته .

ولكن هذا اليوم كان يختلف كثيراً عن المرة الاولى . فقد تشوق لهذه الزيارة أسابيع كثيرة ، وأعد لها الاهبة مع رهط من الرفقاء الجليليين الذين سافر واياهم مشياً على الاقدام وكانوا يبيتون في خيامهم في كل مساء وهم في طريقهم الى المدينة العظيمة . ولا شك ان بعض الرفقاء ذوي الاختبار قص عليه شيئاً عن اختلاسات الصيارفة وحوادث سلبهم ونهبهم في أثناء العيد . وان احدى النساء حدثته في الطريق عن الحمل الذي تعبت في تربيته في العام الماضي ، وعند ما أحضرته الى الهيكل لتقربه ضحية لله رفضه الكهنة باحتقار وأمروها أن تشتري سواه من الباعة . وان أحد الشيوخ أخبره بما جرى له في العيد الماضي وكيف انه أحضر الدراهم التي جمعها على ممر الشهور الكثيرة ليشتري بها تقدمته فسرق الصيارفة اكثرها

عند ما بدلوها له بالعملة المتداولة فى ساحات الهيكل . وآخرون قصوا عليه الكثير من الحوادث المؤلمة التي كانت تجري لهم فى الاعياد الماضية مما أثار فى نفسه ما كمن من الثورة على اللصوص الذين كانوا يتخذون هيكل الله وسيلة للربح القبيح وايقاع الناس في فخاخ الغدر والمكر . ولكن الزيارة فى العيد قلما تخلو من التضحية ، وقد يكون الزائر مضطراً الى دفع ثمن زيارته فاحشاً . ولذلك هدأت حدة الشاب الجليلي فى الليلة السابقة لدخوله الي الهيكل وفارقه ما علق بفكره من الغضب لما سمعه من تعديات الكهنة والصيارفة .

ولكن الحالة تغيرت بكاملها عند ما دخل الهيكل في الصباح ورأى بعينيه حقيقة جميع الحوادث التي سمعها . وكانت تأوهات النساء الفقيرات تنفذ في قلبه كالحراب الحادة ، وتضرعات الشيوخ الاتقياء للصيارفة والباعة الذين كانوا يعرضون عنهم ويعاملونهم بمنتهى القساوة — كل ذلك اشعل نيران الثورة في نفسه فعمد في الحال الى حبل كان موضوعاً امامه على الارض فاخذه وعمل منه سوطاً غليظاً حمله بيمينه وسار بين الجموع هادئاً على جاري عادته حتى وصل الى موائد الصيارفة فقلبها برفسة من رجله وألعب السوط بظهور اصحابها فهربوا ذات اليمين وذات اليسار وصاح بالكهنة الواقفين في صدر الدار صيحة دوت لها قباب الهيكل وهامت لهولها قلوبهم وظل سائراً لا يلوى على شيء حتى وصل الى اقفاص الحمام فحطمها وحرر الطيور المحبوسة فيها ثم تحول الى زرائب الحيوانات

ففتح ابوابها واطلق كل ما فيها من المواشي وهو يعمل سوطه في في اكتاف الباعة الذين تفرقوا من امامه من غير ان يجرأوا على النظر الى وجهه .

وقد حدث كل هذا بملء السرعة حتى أن الكهنة اخذتهم الحيرة وبالكاد استطاعوا أن يجروا اقدامهم ويتجمعوا حواليه متسائلين بعضهم مع بعض من هذا الرجل حتى يتجاسر على القيام بمثل هذه الاعمال الشريرة ؟ من اين أتى الى الهيكل ؟ وباي سلطان يقضي على اعمالهم وارباحهم ؟ اما الجماهير المزدحمة في الهيكل فانها فرحت بحدوث كل هذه الحوادث لانهم كانوا يكرهون الكهنة والصيارفة ؛ ولذلك لم يتدخلوا في الامر ولم يتعرضوا له بكلمة سوء قط .

اما هو فكان يود لو يقوم في طريقه من تبدر منه اقل مقاومة لانه كان على اتم الاهبة لاستقباله وهو ما برح يجدل صوته الصغير بيديه . وكان ينظر الى الجموع نظرات قاسية ملؤها القوة والثورة على الجشع والطمع .

وبعد أن فرغ من تطهير الهيكل صرخ قائلا ، « انني افعل كل هذا بسلطاني الحقيقي . فانه مكتوب ان بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الامم ، ولكنكم جعلتموه مغارة للصوص . »

وقد اوقعت كلماته الرعب في قلوب الكهنة فهربوا من امام وجهه . اما الجنود فلم يعبأوا بالامر لانه لم يكن من خصائصهم . ولكن الشعب فرح جداً وتعالت من بينه اصوات الهتاف والتهليل

وجاء الشبان وحملوه الى خارج الهيكل وهم يترنمون بالاناشيد المفرحة . وقد كان عمله حديث الخاصة والعامة في مدينة اورشليم تلك الليلة .

فكان الانسان حيثما سار في المدينة يسمع الناس يتساءلون قائلين احدهم للاخر :

« ألم تعرف بما حدث في الهيكل اليوم ؟ »

« لم يجسر احد من الزعماء ان يقف امامه . »

« قبحهم الله من لصوص اردياء ! فقد نالوا ما يستحقونه !

« هل تعرف اسمه ؟ »

« اسمه يسوع ... وقد كان فيما مضى نجاراً في ناصرة الجليل . »

* * *

كلنا نعرف هذه القصة وقد طالما سمعنا الناس يتحدثون بها والوعاظ يبنون عليها مواعظهم . ولكن جميع الصور التي تركها لنا المصورون ليسوع تمثله بهالة من النور فوق رأسه ، كان مثل هذه الهالة تعبر للناس عن انتصاره المجيد . ولكن الحقيقة أبسط من ذلك وأكثر وقعاً في القلوب . فقد كانت في عينيه غاية ادبية اشد من النار اشراقاً ؛ ولذلك كان الطمع والاستبداد يرتجفان امام تينك العينين ولا يستطيعان ان يثبتا لحظة امام نيرانها المتقدسة . وكان له غير نظراته الحادة قوة اخرى تزيده نفوذاً وتزيد الناس رعباً منه

فانه فيما كان يرفع يمينه و ينزلها والسوط يلعب على ظهور المنافقين كان كم قميصه يسقط فيرى الناس من تحته عضلات قاسية كالحديد. وما من رجل رأى تلك العضلات القوية الا وادرك ان الهرب من أمام صاحبها خير من مخاصمته . ولذلك لم يكن بين الكهان الضعفاء والصيارفة الجبناء من تجاسر ان يثبت امامه ولو لحظة واحدة .

من الناس فريق يرمون بالكفر كل من يقول أن يسوع كان قوي الجسد . فهم يفكرون به كصوت وخيال وروح ؛ وهم قلما يشعرون بما اودع في جسده الصحيح من القوة العجيبة والرغبة في الافراح والمآ كل اللذيذة ، ولا يريدون ان يذكروا ما تركه العمل الشاق والجهاد المتواصل من القوة الحديدية في ذراعيه وظهره وساقيه . وهم لو أمعنوا النظر في درس السنوات الثلاثين الاولى من عمره لعدلوا في الحال عن نظرياتهم السقيمة واحكامهم المعوجة .

فان امه لم تعرف نعومة السرير الحديث في الليلة التي ولدت طفلها الصغير . فقد ولدته في مغارة البهائم بين الحيوانات والرعاة الفقراء . وقمطته بالاقمطة الغليظة فاعدته منذ نعومة اظفاره للحياة الشاقة والاعتماد على النفس في جميع أعماله . وعندما كان طفلا صغيراً هربت عائلته الى مصر مجتازة الصحراء المحرقة . وعند رجوع والديه من مصر كان قادراً على المشي في عرض تلك الصحراء الكبيرة فكان له من ذلك اكبر وسيلة لانماء عضلاته وقوة جسده . وبعد الرجوع من مصر كان يسير فى كل يوم فى الحقول

والاحراج بجمع الحطب لوقيد العائلة . وقد كانت هذه الاعمال ولا شك قاسية على طفل مثله ولكنها سلحته بالقوة الجسدية التي اعتمد عليها فى اكثر اعماله على الارض .

وقد اضطره فقر عائلته الى العمل فى دكان والده فى فجر صبوته . ولم يكن عمل النجارة بالامر السهل فى تلك الايام . فكان النجار مضطراً ان يذهب الى الاحراج ويقطع الاشجار العظيمة ثم يعمد الى نشر الالواح منها بقوة ساعديه لان الالات الحديثة لم يكن لها اثر فى ذلك الزمان . وكان اذا اخذ على نفسه بناء بيت من الاخشاب يضطر الى حفر اساساته ووضع جدرانه على الصخور المتينة . ولذلك فان الجموع الذين سمعوا يسوع يخطب فيهم على شواطيء بحيرة الجليل عن الرجل الذي يبني بيته على الصخر عرفوا أن الرجل كان يتكلم عن معرفة واختبار سابق . فان الكثيرين منهم قد رأوه فى اول عمره يحني كتفيه تحت الاحمال الثقيلة ، او يسير بين الاحراش عند الصباح وفأسه على كتفه ثم يعود عند المساء حاملا جسراً كبيراً على ظهره .

بمثل هذه الطريقة كان يسوع « ينمو وتتقوى » كما يخبرنا الكتاب — ولكن هذه العبارة الجميلة قد حجبت عن الانظار بالعبارات الكثيرة المترددة فى كل صفحة من ترجمات حياته من مثل « الحمل الوديع الوضيع ، » وامثال ذلك . وكان كلما ازداد قوة واختباراً فى عمله يواصل العناية بدكان يوسف حتى ان يوسف

الشيخ الطاهر ألقى عليه اخيراً مقاليد العمل باسره لما وجده فيه من الاهلية والمقدرة . وهكذا تم للنجار الشيخ ان يستريح من عناء الاشغال ويضع مسئولية دكانه على الفتى النشيط الذى اتقن المهنة جيداً وبرهن بحسن ادارته ووافر دربته انه أهل للثقة التي وضعها النجار الشيخ فيه .

افلا يستحق هذا الشيخ الصالح والحالة هذه اضعاف اضعاف ما تقدمه له من الاحترام ؟قد قدمت الكنيسة لمريم كل ما يمكن من الاكرام وأحلتها مركزاً مجيداً خالداً ؛ وما من رجل مفكر فى العالم يتردد عن شكر الكنيسة على هذا العمل الجليل . لان المنافع التي جنتها الحياة النسوية فى تقدمها وسيرها الى الامام من تعليم الطفل منذ ولادته على اكرام الوالدة الطاهرة تفوق العد والحصر . ولكن تمجيد مريم واكرامها لم يرافقهما الاكرام الواجب ليوسف الصديق . فان النظرية اللاهوتية التي عملت على تصوير الابن بمظاهر الضعف والتخنث ، ورفعت مركز النسوية الى مستوى العبادة ، قد أنكرت على الرجولة حقها من التبجيل والتعظيم . وقد يكون السبب فى كل هذا ان مريم عاشت طويلا فعرفها التلاميذ وذكروها فى كتاباتهم فى حين ان يوسف مات قبل ان عرفه أحد منهم — كما نرجح — ولذلك أهملوا ذكره . فهل كان يوسف فلاحاً بسيطاً ساذجاً تزوج من فتاة أرفع منه حسباً ونسباً ومات مندهلا من عظمة ابن لم يقدر أن يفهم نبوغه قط ؟ أم كان رجلاً عزوماً مؤمناً عمل بصادق ايمانه وثابت عزيمته على تنمية

حياة الطفل الصغير فى مسالك القوةالبالغة والايمان القويم ؟ وهل كان صديقاً شفيقاً ورفيقاً محبًا لأولاده ؟ وهل كان يحمل طفله الصغير الباكي على ذراعيه مبتسماً راضياً وهو يخرجه من دكانه ويرجعه الى أمه فى البيت ؟ هل كان بشوشاً محبًا للمجون وهو جالس الى الطعام مع عائلته؟ وهل كان يرجع من دكانه عند المساء تعباً ملولاً كثير الغضب والتذمر ؟ وهل كان شديداً فى قصاص أولاده يعاملهم بالقسوة والغلظة؟ ليس فى الانجيل جواب واحد عن كل هذه السؤالات . ولذلك — ولما كان لا يوجد مستند واحد لنقض ما نجيب به من عندنا عن هذه الاسئلة — فاننا نعتقد ان لنا ملء الحق فى ايضاح رأينا فى حقيقة هذا الرجل الصالح الذي أهمل ذكره فى الكتب القديمة معتمدين على حقيقة واحدة نعرفها ونثق بها من هذا القبيل . وهي كما يأتي : كان يوسف محبًا صبوراً فاضلاً فى جميع أعماله ؛ وليس شك فى ان أولاده كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى المثال الا كمل للوالد الصالح والاب الشفيق — لان يسوع عند ما فكر فى أن يقدم للعالم رأياً جديداً فى الخالق العظيم ، لم يجد كلمة يمكن أن تعبر عن الصورة السامية المرتسمة فى ذهنه لحقيقة الله غير الكلمة الواحدة « الاب »

ثلاثون عاماً مرت على وجود يسوع فى بيت يوسف . وفى العام الثلاثين نرى يسوع يهجر عمله فى دكانه ويترك الناصرة محمولاً بما فى أعماق قلبه من الرغبة الخفية فى خدمة الانسانية — الرغبة التى لم يزدها نجاح يوحنا فى بشارته الا توقداً ونمواً . ان ساعة العمل العظيم دنت أخيراً

فلم يتردد يسوع فى قراره بل هجر آلات النجارة وسار فى الحال فى طريقه الى المدينة العظيمة .

كيف كان منظره في ذلك اليوم عند ما ظهر على ضفة الاردن وطلب أن يعتمد من يوحنا ؟ وماذا تركت مشاق الاعمال الجسدية مدة ثلاثين سنة في جسده وعضلاته ؟ ليس في البشائر الاربع لسوء الحظ جواب واحد عن هذين السؤالين ؛ والكتاب الوحيد في العالم القديم الذي قيل انه وصف حقيقي ليسوع من رجل عاش معه في بلاده ظهر اخيراً انه كتاب كاذب مزور . ولكننا مع كل هذا قلما نحتاج الى اكثر من القليل من القراءة بين السطور لنثق بان جميع المصورين الذين رسموا لنا يسوع قد عملوا على تضليلنا اكثر مما اظهروا لنا الحقيقة المنشودة . فقد قدموا للعالم صورة رجل ضعيف ، ضامر العضلات ، نحيف الوجه — وجه امرأة مغطى بلحية — ترتسم على محياه الكئيب نظرة الهم والغم كأن وسائل المعاش كانت ضيقة عليه لهذه الدرجة حتى كان يتمنى الموت ليستريح من اثقال الحياة .

ليس هذا بيسوع الحقيقي الذي بكلمة واحدة من فمه الطاهر هجر التلاميذ اعمالهم وساروا وراءه الى حيث لا يعلمون

ولكي تثق بصحة قولنا هذا ضع نصب عينيك اربعة مظاهر من حياته على الارض : أولاً ؛ الصحة التي كانت تفيض من وجهه وعينيه فتوجد الصحة في الآخرين؛ ثانيا ؛ الشخصية القوية التي كانت تجذب النساء اليه — والضعف لا يجذب قلوب النساء ؛ ثالثاً ، محبته للحياة

الدائمة في الفضاء الطليق ؛ رابعاً ، صلابة اعصابه الفولاذية .

فلننظر اولاً في قوته على شفاء المرضى .

كان يعلم مرة في كفر ناحوم ، وكانت الجموع تزدحم حواليه في احد البيوت الى خارج الابواب عند ما تعالى الصراخ والضجيج في خارج الدار . فان مخلعاً كان طريح الفراش من سنين عديدة سمع بقوة يسوع على شفاء المرضى ، فاقنع اربعة من اصدقائه ان يحملوه الى حيث كان المعلم . ولكنهم لم يستطيعوا الدخول لشدة الازدحام على الابواب . لان السامعين كانوا يصغون الى أقوال يسوع الحكيمة بكامل قوتهم ولذلك ابوا أن يفسحوا مجالاً لهذا المريض لئلا يدخل ويقطع الاحاديث الممتعة التي كانوا يسمعونها فاستاء الاصدقاء الاربعة الذين كانوا يحملون المخلع وهموا بالرجوع به الى منزله .

ولكن ارادة المريض المسكين كانت قوية جداً رغماً عن شدة ضعف جسده . فتضرع اليهم باكياً ان يصعدوا به على سلم البيت وينقبوا السطح وينزلوه الى حيث كان يسوع . وعبثاً حاولوا الاعتراض على هذا العمل لان الرجل كان يطلب منهم ذلك بصورة تفتت القلوب ، لانه عرف ان هذه هي الفرصة الوحيدة لشفائه وقد لا يسنح له مثلها فكيف يتركها تفلت من يديه من غير أن يبذل آخر وسيلة ممكنة للحصول عليها . وهكذا اشفقوا عليه اخيراً وفعلوا كما

أراد وفيما يسوع يتكلم اذا بالمريض يتدلى بسريره فجأة من السطح و يوضع أمامه .

فوقف في الحال ، واخذ يد المخلع النحيلة بقبضته القوية ؛ ونظر اليه والنور يطفح من وجهه والابتسامة مرتسمة على ثغره الطـــاهر .

ثم قال له ، « يا ابن ، مغفورة لك خطاياك ، قم ، احمل سريرك وامشِ . »

فاخذ الدهش بمجامع قلب المريض اذ سمع الـكلمة الاخيرة « امشِ ! » فهو لم يكن يحلم ولا في نومه بانه سيقدر أن يمشي في حياته . أفلم يفهم هذا الغريب انه كان منخلعا طريح الفراش منذ سنين عديدة ؟ ام كان يعمد الى مداعبته بطريقة قاسية ليجعله هزء وسخرية في عيون الجماهير الذين ازعجهم بحضوره الغريب ؟ وقد خطر له ان يعترض على كلام يسوع بعبارات غليظة ، وفيما هو يهم بالـكلام رفع عينيه — فرأى أمامه صورة ثابتة للرصانة والهدوء في عيني المعلم ، وقوة راسخة في عضلاته ، وصحة متدفقة في وجهه المشرق بالنور والحياة، النامّ عما يجرى في عروقه من الدماء النقية — فحصل في الحال على شفائه الـكامل ! فان الصحة انسكبت الحال من الجسد القوي الى الجسد الضعيف بسرعة البرق . فاحس المخلع بدماء القوة والحياة تجري في اعضائه الـكسيحة ، وابرقت اشعة الصحة في وجنتيه الضامرتين فنهض من فراشه صحيحًا سالمـًا

وسار أمام الجموع يحدث الناس بكل ما جرى له !

« امش ! » وهل يخطر لك لحظة واحدة ان ضعيفاً كئيباً كان يستطيع أن يتلفظ بمثل هذه الكلمة ويحدث مثل هذه النتيجة؟ فلو ان يسوع الذي نظر الى هذا الخلع الكسيح كان كما يصوره لنا المصورون المسيحيون فان هذا المريض المسكين كان ولا شك قد رجع بخفي حنين وهو يمطر الانسانية بوابل السباب والشتائم . ولكن صحة المعلم كانت ينبوعاً يستقي منه جميع المرضى مياه الصحة ويتعافون ؛ لأن مجرد النظر الى وجهه كان كافياً لأن يقرأ فيه المريض بحروف واضحة انه « ما من شيء يستحيل عليك حصوله اذا كان لك قسط كاف من قوة الارادة . » ولذلك استطاع الرجل الذي استسلم لليأس سحابة حياته أن يتمتع بحلاوة الرجاء ثانية وينهض ويحمل سريره ويسير في طريقه صحيحاً معافى — كغيره من مئات المرضى في الجليل — بما حصل عليه من القوة من معين القوة الذي لا ينضب .

وفيما يسوع مجتاز بين الجموع في أحد الايام — بعد هذه الحادثة — دنت منه امرأة ومست هدب ثوبه ؛ وبهذه الملامسة البسيطة نالت الشفاء التام من نزيف دم ؛ أصابها منذ صباها وأعيت دون شفائه حيل الاطباء . وقد حسب جميع الذين رأوا هذه الحادثة انها كانت اعجوبة ، وحسناً فعلوا لانها كذلك . ولكن يسوع كان كثير التكتم

في « عجائبه » . ولنا دليل واضح انه لم يعرها الاهمية التي أعارها اياها تلاميذه وأتباعه ولم يفسرها كما فسروها . وقد طالما تمنع عن اجتراحها ، وكان يوصي كل مريض يشفيه الا يخبر أحداً بما جرى له : وفي زيارته الشهيرة لمسقط رأسه « الناصرة » يخبرنا الكتاب بملء الايضاح ان مجترح العجائب العظيمة لم يستطع على صنع اعجوبة واحدة ، والسبب لذلك معقول يدعو الى التفكير والتأمل . فان أهل الناصرة كانوا عشراءه ومعارفه منذ نعومة أظفاره ولذلك كانوا كثيري الشكوك في تصديق الاخبار عن عجائبه وآياته الشهيرة التي عملها في المدن والقرى المختلفة ؛ ولذلك عزموا على عدم التصديق بأي عمل من أعماله . فهو قد يستطيع أن يخدع العالم الذي لم يعرفه الا معلماً وزعيما كبيراً ، ولكن أهل الناصرة عرفوه أفضل من الجميع — فهو يسوع ابن يوسف النجار الذي نشأ وترعرع في قريتهم . ولذلك سطر كتبة الانجيل في شأن هذه الزيارة للناصرة أفجع العبارات المكتوبة في أسفار القدماء بقولهم : « لم يستطع أن يصنع هناك عجيبة قط لعدم ايمانهم . » وكيفما كان ايضاح قوته على صنع العجائب فان الامر واضح لنا ان الذي كانت تصنع فيه الاعجوبة كان يطلب منه أن يقوم ببعض الاعمال التي كان يقوم بهـا صانع العجيبة . فالمريض بدون الايمان بالصحة لم يكن قادراً أن ينال الصحة . وما من رجل كان يستطيع أن يبعث مثل هذا الايمان في قلوب المرضى ما لم تكن صحته وقوته كاملتين لدرجة انهما تجعلان الغير الممكن يظهر ممكناً .

كان الرجال يتبعونه ، وزعماء الرجال كانوا في الغالب أقوياء الاجسام . ولـكن النساء كن يعبدنه . وهذا أمر ظاهر في الـكتاب ولا يحتاج الى برهان . فان أسماء النساء تشغل قسما كبيراً من قائمة أسماء أصدقائه المقربين . فقد كن نساء من طبقات مختلفة في البلاد وكانت والدته على رأسهن . وقد لا تكون أدركت قوته العظمى وحقيقة نبوغه وعبقريته ؛ لانها لم تعش بدون الشكوك الـكثيرة في حقيقة ابنها كما سنرى في الفصول التالية . ولـكن أمانتها في خضوعها لمباديه السامية ، كما استطاعت أن تفهمها ، لم تفارقها سحابة حياته ، ولذلك مع ان الدموع كانت تذرف سخينة من عينيها وهي واقفة أمام الصليب فانها لم تخسر ايمانها بحقانية دعوته وصادق مبادئه . وهنالك مريم ومرثا شقيقتا لعازر ، اللتان كانتا تعيشان خارج اورشليم وقد طالما زارهما يسوع وحل ضيفاً مكرماً في منزل أخيهما ؛ وهنالك يونا ، المرأة الغنية ، زوجة أحد رجال هيرودس المنفذين — هؤلاء وكثيرات غيرهن من النوع الذي نسميه « نساء صالحات » كن في مقدمة المؤمنين به والسائرين وراءه وهن مأخوذات بحبه وتعشق سماع كلماته وعبادته !

وأهم ما يجب أن نتذكره في هذه العلاقات بين «النساء الصالحات» والمعلم ان النساء لا يجذبهن الضعف . فالرجل الاصفر الوجه الرقيق الشفتين الضامر العضلات الذي يطلق عليه اسم « الروحي » بين الناس قد يستلفت أنظار النساء الشفقة عليه وليس لاحترامه. ولـكن ما من قوة

أعجبت بها المرأة منذ تأسيس العالم حتى اليوم مثل قوة الرجولة . والرجال الذين أعجب بهم النساء وتفانين في سبيل حبهم وإكرامهم كانوا من أعظم الرجال الذين نبغوا في التاريخ وأشدهم قوة وبأساً .

وهنالك نوع آخر من النساء اللواتي جئن الى يسوع ، — نساء جار عليهن الزمان وأوقعتهن الايام في مهاوي السقوط والزلل فأنقدن للرجال في مسالك الخطيئة ثم ما لبث الرجال ان أعرضوا عنهن فحملوهن الى الثورة على الرجال بأجمعهم بل على المجتمع الانساني بكامله . وفيما هو يعلم في الهيكل ، أحضرت اليه واحدة من هؤلاء الشقيات وكان يقودها جمع من الكتبة والفريسيين المرائين الذين ادعوا انهم أمسكوها في الزنى ، والشريعة الموسوية تقضي برجم الزانية . وكانت المرأة تسير أمامهم مرتجفة يائسة تبدو على وجهها أمائر الهزء والاحتقار للعالم أجمع ، ووقفت أمام يسوع مطرقة الى الارض فيما كان الشيوخ يقصون عليه بشفاههم النجسة عارها وخزيها . فما هي الافكار التي كانت تختلج فى فكرها — وهي المرأة التي عرفت الرجال واحتقرتهم بأجمعهم — وقد أحضرت لتحاكم أمام رجل ؟ فقد كان الرجال كلهم متشابهين في عقيدتها ؛ فماذا عسى أن يقول هذا الرجل ؟ وهل هو من غير طينة اخوانه ؟

ولشدة دهشتها وفشل خصومها لم يجب يسوع بكلمة قط . « ولكنه انكب يخط بأصبعه على الارض كأنه لم يسمعهم . فتطاولوا بأعناقهم لكي يروا ماذا يكتب وهم يواصلون سؤالاتهم البليدة قائلين:

« قد أوصى موسى في الناموس ان ترجم مثل هـذه فماذا تقول أنت ؟ »

« هلم بالجواب اذا كنت نبياً بالحقيقة ، فهذه فرصة ملائمةلاظهار نبوءتك بالقضاء في دعوى هذه المرأة . »

« قد وجدناها في بيت فلان الفلاني . وهي لا تقدر أن تنكر جريمتها . فماذا تجيب ؟ »

لم ينظر يسوع كل هذا الوقت الى وجه المرأة ، ولم ينظر اليها الآن . ولـكنه « انتصب » بملء الهـدوء ونظر الى الجمع الشرير المجتمع حواليه قائلا :

« من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ و يرمها بحجر . »

ثم اكب أيضاً يخط على الارض كما يقول الانجيل

فسقط الرعب على الجمع بأسره وذعروا من صمته ؛ أما هو فظل مكباً على الكتابة .

ولكن ما هي الكتابة التي خطها أصبعه على تلك الارض ؟ خيل الى بعض المفسرين انه كان يدون تاريخ كل واحد من الحاضرين بصورة تظهر له عاره وشناره . وقد يكون ذلك، ولـكن القضية تكون اكثر وقعاً في النفس اذا فكرنا انه لم يكتب شيئاً من هذا ؛ ولـكنه كان يشغل اصبعه في الرمل ، لكى لا يزيد في كآبة المرأة اذا نظر اليها بعينيه الطاهرتين . وقد ظل مواظباً على عمله وشيوخ الشريعة وأساتذة الآداب يخرجون ملتفين بأردية الخزي والفشل واحداً

فواحداً حتى لم يبق في المكان الا يسوع وحده والمرأة قائمة في الوسط . فانتصب اذ ذاك وقال لها مستفهماً مستغرباً :

« يا امرأة » أين الذين يشكونك ؟ أما حكم عليك أحد ؟ »

فقالت المرأة والدهش أخذ بمجامع قلبها ، « لم يحكم علي أحد يا رب . »

فقال لها يسوع ، « ولا أنا أحكم عليك . اذهبي ولا تعودي تخطئين . »

كان يسوع من الدقيقة الاولى التي اجتمع فيها أساتذة الشريعة حواليه سيداً مطاعاً مهاباً . ومع ان أولئك الرجال كانوا عازمين على البقاء في ذلك المكان حتى يوقعوه في أشراكهم فانهم انصرفوا من حضرته مرتعدين مذعورين من غير أن يسمعوا قضاءه الاخير ، والمرأة التي عرفت الرجال أكثر مما عرف كل منهم نفسه ، شعرت بعظمته : وعبرت عن شديد احترامها له بقولها « يا رب » .

والدليل الثالث الذي لا يقبل النقض على قوته الكاملة هو محبته البالغة للحياة في الفضاء الطليق . وكان في يوم السبت يذهب الى الهيكل حيث يجتمع الشعب للصلاة ؛ ولكن أكثر تعاليمه الخالدة ألقاها على شواطيء بحيرته ، أو في جوانب التلال في الاظلال المنعشة بنسيمها العليل . وكان يمشي بغير انقطاع من قرية الى قرية ؛ وكان وجهه محترقاً بأشعة الشمس ولفحات الريح . وكان ينام أكثر لياليه في الفضاء مولياً ظهره منازل المدينة الضيقة المظلمة وناشداً الهواء النقي

الممتليء بالصحة في جبل الزيتون . فهو والحالة هذه المثال الاكمل لرجل الفضاء الذي يعجب به أبناء « الفكر الحديث» في هذه الايام. وقد عملت هذه الحياة الحرة في الطبيعة اللطيفة على تدليمه بأعصاب أمتن من الفولاذ وعضلات أقوى من الحديد .

حدث مرة انه ركب سفينة مع تلاميذه في احد الامساء، ولشدة تعبه اتكأ في مؤخر السفينة فنام في الحال . ولم تمض على ذلك بضع ساعات حتى تلبدت السماء بالغيوم ، واضطرب سطح البحيرة وتعالت امواجه بعد أن كان هادئاً في اول الليل . وكانت الامواج تكد السفينة وتسير بها حيث شاءت وشاء اضطرابها ، ولكنه رغماً عن كل ذلك لم يستيقظ من نومه . أن التلاميذ نشأوا وترعرعوا على شواطيء تلك البحيرة . وقضوا اعمارهم يصيدون اسماكها ، ولذلك كانوا يعرفون عواصفها وانواءها ولم تكن اضطراباتها لتخيفهم . ولكنهم لم يسبق لهم قط ان رأوا عاصفة مثل العاصفة التي هبت عليهم في ذلك الليل . وكانت تشتد في كل لحظة حتى أن المياه دخلت من جوانب السفينة فانذرتها بالهلاك بكل من فيها . ولذلك خاف التلاميذ خوفاً عظيما ونفدت حيلهم في السعي لخلاص السفينة ولذلك اسرعوا الى مؤخرها وايقظوا المعلم من نومه

فنهض يسوع من غير أن تبدو عليه اقل اشارة من اشارات الخوف او العجلة . فقد ادرك بنظرة صغيرة الموقف الذي كان فيه تلاميذه . فاعطى بضعة أوامر هادئة وهكذا سارت السفينة المضطربة

الى مياه السلامة ثانية . قد تسمى هذا العمل عجيبة وقد لاتفعل ذلك — ولكنك لا ولن تستطيع ان تنكر أنه أفضل مثل للسيادة على النفس في جميع التاريخ الانساني . ومن اقوال « نابليون » المشهورة انه لم يجتمع سحابة حياته الا بقدر قليل جداً من الرجال الذين لا تفارقهم شجاعتهم في الساعة الثانية بعد نصف الليل . كثير هم الرجال الذين يكونون شجعاناً في حرارة الشمس وبين تهاليل الجماهير ؛ ولكن أن يوقظك الناس فجأة من نومك العميق فتنهض هادئاً شجاعاً للسيادة على مصيبة غير منتظرة — ذلك بالحقيقة مثال نادر للشجاعة في العالم !

قد تحلى يسوع بهذه الشجاعة ، ولم يقم في العالم زعيم احتاج اليها اكثر منه ففي السنة الاخيرة من عمله العمومي اشتد بغض الناس له ومقاومتهم لجميع تعاليمه حتى اصبحت النتيجة ظاهرة لكل ذي عينين . فقد عرف انه اذا لم ينسحب مما كان يقوم به او يخضع لاوامر الرؤساء فانه صائر الى ما لا تحمد عقباه . لانه كان عالماً انهم سيقتلونه اذا اصر على التمرد ، وكان عالماً ايضاً كيف سيقتلونه . فقد طالما رأى في اسفاره العديدة في ضواحى المدينة المجرمين معلقين على خشبة الصليب وهم يئنون ويتوجعون منتظرين الساعة الاخيرة . وكثيراً ما كانوا يتعذبون اياماً قبل أن يلفظوا انفاسهم ويستريحوا من اوجاعهم . وليس شك في أن تذكار هذه المناظر لم يبرح فكر

يسوع قط ، ولذلك كان يشعر عند كل مساء انه قد اجتاز يوماً جديداً للدنو من خشبة صليبه .

بيد أنه لم يتردد قط في عمله ولم يستسلم لمخاوفه. بل كان شجاعاً في جميع اعماله يعزي أرواح تلاميذه بابتسامته الجميلة ، ويواصل ضرباته الهائلة ضد رياء الرؤساء واستبداد الكهان والزعماء الذين ارجعوا له صدى ضرباته بالمطرقة التي انزلت المسامير في يديه ورجليه على الجلجثة . وعندما جاء الجند للقبض عليه وجدوه على أتم الاستعداد — ولكن هادئاً شجاعاً .

وقد اخذ اسبوع محاكمته وصلبه اكثر صفحات الانجيل : ولذلك نستطيع بهذا الاسبوع من حياته ان نرافقه ساعة فساعة ؛ فنحن نعرف أين أكل ، وأين نام ، وماذا قال ، ولمن وجه كلامه :؟ وبالاجمال فاننا نعرف جميع الحوادث التي جرت له من ساعة القبض عليه الى أن فاضت روحه على الخشبة . واعظم ما يجدر بنا نذكره في جميع هذه الحوادث — أنه في كل انواع تعذيبه في سجنه ، ومحاكمته أمام قضاته ، في الليل والنهار ، وما أصابه من الضرب والجلد واللطم والتعيير والبصاق والجوع والحاجة الى النوم لم تفارقه شجاعة المعلم العظيم لحظة قط . كان اعداؤه شديدي البغض له يصرخون باعلى الصوت طالبين صلبه ولكنه عند ما كان يظهر امامهم كان الرعب يأخذ بمجامع قلوبهم .

أن بيلاطس نفسه شعر بعظمة الرجل. فكر هنيهة في هذين الرجلين

ـــ فهناك الحاكم الروماني الذي كان يستطيع بكلمة واحدة القضاء بالموت على يسوع ؛ وهنالك النجار الناصري الصامت الذي رغمًا عن جميع الدعاوي المقدمة ضده كان رابط الجأش لا يعرف الخوف سبيلا الى قلبه ولا يتفوه بكلمة واحدة على الاقل لتبرير نفسه كأنه كان يحسب نفسه ارفع من أن تطاله شرائع البشر، واسمى من أن يناله عقابها بسوء . وكانت في وجه الحاكم الروماني خطوط عميقة تدل على الهموم والاحزان ؛ وكانت وجنتاه تنمان عن انانيته ودعارته وكل ملامح وجهه تظهر أنه قضى حياته سجينًا في القصور والمنازل المظلمة. اما النجار الناصري فانه كان اطول منه قامة، وكان نور الصحة يتدفق من وجهه والنقاوة مرتسمة على ثغره النقي كهواء جبله المحبوب وبحيرته الهادئة . جاء بيلاطس بيسوع الى امام الجموع الثائرة ، ورفع يمينه ، فبدأ الصراخ والضجيج وساد على الجميع سكوت عظيم . ثم التفت الى النجار الناصري الواقف الى جانبه وتلفظ بكلمتين هما بالحقيقة افضل واصدق من جميع الصور التي رسمها ابناء الانسان لتمثيل المعلم الصالح . لان الحاكم الروماني العظيم لم يقدر ان يملك نفسه عن التصريح بالحقيقة وهو في حضرة القوة الكاملة ، والثقة الكاملة بالنفس ، والهدوء الكامل — ولذلك صرخ باعلى صوته قائلا :

« هوذا الرجل ! »

الفصل الثالث

الرجل الانيس

ان كذبة عظيمة في تاريخ المسيح تناقلتها الالسنة بالتصديق من العصر الاول الى القرن العشرين .

وقد ظهرت حديثاً في كتاب انكليزي طبع في العام الماضي ومما اورده المؤلف في وصف زيارة قام بها « اللورد فيشر » Fisher انه وجده أقل بشاشة من ذي قبل . فان خاطراً مكدراً كان يتردد في فكره فيفقده ابتسامته اللطيفة التي قلما تفارق ثغره . ولكن اللورد لم يلبث ان أعلن لضيفه السبب الذى عمل على كآبته بقوله :

« انه غير خاف عليك أن « لنتلوس » Lentulus خلف بيلاطس البنطي في الولاية على اليهودية . . . وقد كتب هذا الوالي الجديد وصفاً وافياً لحياة مخلصنا ، وذيله بهذه العبارة ، «انه ما رجل رأى يسوع ضاحكاً سحابة حياته . »

« تلفظ اللورد فيشر» بهذه الكلمات ثم عاوده صمته العميق وتأمله الممزوج بالكآبة . فقد اراد أن يظهر بمظهر الاحترام تجاه هذه الحقيقة ؛ لانه كان شديد التمسك بتقاليد كنيسته وعائلته ؛ وكان على اتم الاستعداد للقيام بواجباته كرجل مسيحي وانكليزى مهما

كلفه الامر . ولكنه لم يكن قادراً ان يقوم بعبادة رجل لم يضحك قط سحابة حياته . ولذلك كان حزيناً لا يدري مايفعله .

ولكن هذه العبارة المنسوبة الى « لنتولوس» هي تزوير محض قام به أحد الدجالين في العصور المتأخرة ؛ وظل أثره عالقاً بالاذهان على ممر الاجيال وهو يقوم بافظع الاعمال . فكم هنالك من ملايين الناس الذين يتعشقون السعادة والافراح . ولكن مجرد الافتكار بيسوع كان يؤلمهم ويعمل على كآبتهم . لانهم كانوا يقولون ، «ماذا يقول لنا يسوع لو دخل الى منازلنا ورآنا على هذه الحالة من الضحك والانشراح ؟ وهل يجوز للانسان ان يكون سعيداً في هذا العالم الممتليء بالكآبة والخطيئة ؟ ماذا يفكر يسوع بنا لو رآنا على هذه الحالة ؟ . . . »

بمثل هذه الافكار المزعجة كان السعداء من الناس يخسرون سعادتهم وينحرون افراحهم بحراب الحزن والالام . فان اكثر الناس بهجة ومؤانسة قد حجبته التقاليد السوداء عن الاشخاص الذين كان يفرح ويبتهج بالوجود مع مثلهم . لان الناس صوروا المعلم الانيس بصورة الكئيب المغموم فقضوا بذلك على سعادة الملايين من اخوتهم السعداء الفرحين .

ليست هذه بالقضية الصعب ادراكها على من يتأمل جيداً في حياة الآباء الاولين فقد عاشوا في أيام كئيبة ؛ وكانوا بعيدي الخيال ولذلك كانت أبسط الاشياء التي تبدو أمامهم ترمز الى سر مخفي عظيم؛

والحياة نفسها كانت في عقيدتهم عقدة من النظريات والالغاز الفلسفية.

وقد كان موت يسوع شديد الوطأة على قلوبهم ، حتى انهم في خيبتهم رفضوا قبوله كحقيقة بسيطة وألفوا عوضاً عن ذلك عقيدة نظرية تزيل غيوم الكآبة من جو نفوسهم . كانت الحملان تقرب في الهيكل ضحية عن خطايا المؤمنين ؛ ولذلك فان يسوع كان بالحقيقة حمل الله . وقد قدر له أن يموت على الصليب منذ انشاء العالم ؛ لان الجنس البشري كان يرسف في قيود العبودية للخطيئة ؛ ولم يكن في الامكان تحويل غضب الله عن القضاء على العالم بأسره ما لم يقرب له ابنه البريء ضحية من أجل خطايا العالم .

قال « توماس باين » Thomas Paine ، وفي قوله كل الحق، انه ما من ديانة تكون مقدسة بالحقيقة اذا كان في تعاليمها ما يجرح احساسات طفل صغير . فهل بين قراء هذه السطور من لم تجرح احساساته الصبيانية لان اطلاعه على تفاصيل وشروح الطريقة التي مات بها يسوع ؟ وهل في العالم أب بشري ، يحب أولاده ، ويقضي عليهم جميعاً بالموت ، ثم لا يلبث أن يتحول عن عزمه ويرضى بأن يحتمل واحد منهم آلام الموت المرير لاجل اخوته ؟

فليس بالامر العجيب اذن أن يكون يسوع كما تمثله هذه العقيدة معتصما بالكآبة ابداً أو انه لم يضحك سحابة حياته !

على ان الانجيل يمثله لنا بغير هذه الصورة . ولكن الكتاب كانوا بسطاء القلوب ساذجي العقول ، ولذلك أفسحوا مجالا واسعاً

الحوادث التى أثرت فيهم اكثر من غيرها في حياة معلمهم. ولما كان الموت أفجع مظهر من مظاهر الحياة على الأرض ، لذلك نرى ان الصلب وما تقدمه من الحوادث المحزنة مدونة أخبارها بالتفصيل الكامل في الانجيل . فان توبيخ الفريسيين ورجال الناموس قد أدهش الرسل (كما ان توبيخ الشيوخ فى مجلس الامة الاميركى من أحد الفلاسفة الحفاة في هذا العصر يدهش كل واحد منا و يفسح له رجال الصحف المقام الاول في جرائدهم) ؛ ومثله المحاكمة أمام السنهدرين ؛ والمثول على شرفة قصر هيرودس : والجهاد الطويل في الطريق الى الجلجثة ، وساعات الالام على الصليب — كل هذه مناظر تفتت القلوب ولم تفارق اذهان التلاميذ سحابة الحياة ولذلك تناسوا دونها جميع الحوادث المبهجة التي جرت قبلها . ان حياة يسوع ، كما نقرأها اليوم . هى اشبه بحياة « لنكلن » اذا كتبت من غير اقل اشارة الى ايام صبوبته وشبابه ، واقتصر فيها على القليل من اعماله في البيت الابيض وكل صغيرة او كبيرة من الحوادث التي سبقت قتله ورافقته في ساعاته الاخيرة . فان البشائر الاربع تدون بالتفصيل البكاء والنحيب في ساعة الصلب — وهو الاعجوبة الاخيرة في حياة المعلم ؛ ولم يذكر احد من الانجيليين عن الفرح العظيم الذي قام به يسوع في اعجوبته الاولى سوى يوحنا .

فقد كان عرس في قرية صغيرة في الجليل اسمها قانا وهي لا تبعد كثيراً عن الناصرة . فدعى يسوع وامه الى العرس . وكانت العادة

في ذلك العهد ان مثل هذه الاحتفالات تظل قائمة بضعة ايام . وكان الواجب يقضي على كل المدعوين ان يفرحوا ويتمتعوا بما شاؤوا من المأكل والمشرب ما دام لها أثر في المنزل — وكانت الأريحية الشرقية توجب على أهل العرس ان يكثروا من المآكل والمشارب لكي تطول بها ايام الافراح

وقد بلغ الدهش اشده من نفس ربة البيت عندما جاءها احد الخدم يقول لها سراً أن الخمر قد فرغت . الخمر فرغت في مثل هذا الأحتفال العظيم ! تصور أيها القارىء الاديب حالة تلك المرأة المسكينة لدى مثل هذا الخبر المكدر ! فقد طالما ترقبت الساعات لحلول هذه الايام السعيدة في تاريخ ابنتها التي كانت تحتفل بعرسها . ولم تترك وسيلة لاقتصاد مع زوجها في نفقات منزلها لتوفر مالاً كافياً يقوم بنفقات العرس بصورة لائقة ، فكانت تهمل شراء الثياب لنفسها او لزوجها وتعرض عن الكثير من الاصلاحات الضرورية للبيت لكي يجتمع لديها المال الكافي للعرس في حينه وكانت تعلل النفس بانها بعد الفراغ من الاحتفالات تستطيع أن تجد المال اللازم لسد حاجات العائلة ؛ ولكن واجب المحافظة على شرف البيت بين الجيران كان يقضي عليها ان تبذل آخر ما تقدر على بذله ليكون جميع الضيوف متمتعين بكل وسائل الانشراح حتى الساعة الاخيرة من العرس . وقد اعدت كل شيء في حينه ولم تكن لتحلم انها في مثل هذه الساعة من النجاح الكامل في بهجة الوليمة

تفاجأ بمثل هذا الخبر المزعج الذي ذهب بسعادتها وقضى على جميع آمالها . الخمر — أهم ما يحتاج اليه الضيوف في العرس — الخمر قد فرغت ! ومن اين تأتي بالخمر في تلك الساعة ؟

كان اكثر الضيوف منشغلين بالعزف والغناء والرقص والطرب ولذلك قلما لحظ احد دخول الخادم وما احدثته كلماته من التأثير في ربة المنزل . ولكن ام يسوع لم يخف عليها شيء مما حدث لانها راقبت بعين بصيرة حركات أم العروس وادركت في الحال سر القضية فدنت من ابنها واسرت في اذنه قائلة :

« يا ابني ، قد فرغت الخمر . »

ولكن ما شأنه اذا فرغت الخمر ؟ فقد كان واحداً من عشرات الضيوف الذين بلغوا المائة في اقل تعديل . وقد شرب الجميع حتى امتلأوا وكان ضجيجهم وصوت ضحكهم يتردد في جميع انحاء المنزل . فلماذا لا يثوبون الي رشدهم ، و يودعون اهل العروسين مهنئين و يرجعون كل الى بيته . انهم ولا شك في حاجة الى الراحة وقد مرت ساعة النوم فلماذا لا ينصرفون الى منازلهم ؟ واذا اصروا على المكوث ههنا ومتابعة الشرب حتى الصباح ، فلماذا لا تخبر ربة البيت اقرباءها ليذهبوا ويحضروا لها خمراً من بيوتهم . فقد كان يسوع ضيفاً من خارج القرية . وليس شك ان اخوال العروس حاضرين معهم او احد اعمامها وجيرانها وكان في امكانهم ان يخرجوا مسرعين الى بيوتهم ويحضروا قدراً من الخمر الى منزل العروس .

قبل فراغ الخمر من غير أن يدعوا أحداً يشعر بالمسئلة . . . فلماذا يزعج يسوع الغريب نفسه بأمر ليس من خصائصه ؟

وفوق هذا جميعه فقد حدث له مثل هذا الحادث من ذي قبل فأنه عند ما كان في البرية منذ بضعة أسابيع يتعذب من آلام الجوع رفض أن يستعمل قوته على صنع العجائب لتحويل الحجارة الى خبز . فاذا كان قد أبى أن يحول الحجارة الى خبز يغذي به جسده الجائع — وفي هذا عمل خيري — فكيف يجوز أن يستخدم قوته لاطالة مثل هـذا الاجتماع بين السكيرين والراقصين ؟ إلا أن المعلم الرزين — الذي لم يضحك مرة في حياته — كان ولا شك يلتفت الى الجمهور في تلك الحالة ويخاطبهم بما يأتي :

« أيها الاصحاب ، قد كانت ليلتنا ممتلئة بالافراح ، وقد أكلنا وشربنا فوق طاقتنا مما يجعلنا ممتنين لاريحية ربة البيت ومكارم أخلاقها . ويلوح لي أننا قد تجاوزنا حد الاعتدال في استثمار كرمها الحاتمي . ولذلك اقترح أن نتمنى العروسين السعيدين حياة طويلة ، وننصرف كل الى منزله . »

فهل خطر مثل هذا التفكر ليسوع ؟ أننا لا نقرأ شيئاً من ذلك في قصة هذا العرس . ولكنه نظر الى وجه ربة المنزل الكئيبة فرأي الدموع تترقرق في عينيها ، فذكر في الحال أن هذه الليلة هي عربون نصرها الوحيد في تضحياتها الماضية ، ولذلك قرر أن يساعدها بما يجبر

قلبها الحزين . فأمر أن تحضر لديه ستة أجران كبيرة وتملأ ماء . ففعلوا كما أمر . ثم أوعز الى رئيس السقاة أن يقدم منها للمدعوين . وعند ما ذاق رئيس المتكأ ما قدم له من الجرن الاول التفت الى العريس وقال له ، « كل إنسان يقدم الخمر الجيدة أولا لضيوفه فاذا سكروا فحينئذ يأتي بالدون : أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن . »

فنظرت أم يسوع والدهش آخذ بمجامع قلبها . لانها لم تستطع قط أن تفهم حقيقة ابنها ؛ ولم تشأ أن تدركها . فقد تمكن بقوته العجيبة أن ينقذ ربة البيت من حيرتها ، ولذلك فرحت الوالدة بابنها وهي لم تعرف كيف تم له ما فعل . وما رضيت به الام الطاهرة نرضى به نحن اليوم . فان جميع عجائبه تفوق إدراكنا ؛ ونحن نستطيع أن نقبلها أو نرفضها بالنسبة الى بنيان افكارنا . وإذا كان يجب أن نقبلها بالايمان الصحيح فان هذه الاعجوبة الاولى هي أحق الجميع بقبولنا فهي كثيراً ما تهمل من حوادث حياته ، أو أن المؤرخين يشيرون اليها بدون أقل أهمية . ولكنها في عقيدتنا — نحن الذين نؤمن بيسوع الانيس المحب لافراح الحياة ومسراتها — البرهان الواضح والدليل الناصع كما تجملت به السنوات الثلاث التي جاءت بعدها في حياة المعلم الاكبر من الغبطة والسعادة . فقد قال بطريقته المؤنسة : « قد جئت لتكون لكم الحياة ، ولكي يكون فرحكم فيها كاملا . » ولذلك تراه في فجر خدمته للانسانية لا يستثمر القوة العظيمة الحالة في شخصه

العجيب لتأييدمبدأ أدبي رزين ، أو ازالة آلام موجوع ، بل للحؤول دون انقطاع أفراح الناس قبل الوقت المعتاد وللعمل على بهجة قلب امرأة بفرح ضيوفها الكامل . . . فتأملوا أيها الناس في رئيس المتكأ وهو ينهض ليشرب نخب العروسين . . . أصغوا الى أصوات المغنين والعازفين والراقصين . . . وانظروا الى ذلك الشاب الطويل القامة العريض الكتفين يقف بين الجماهير مشاركا لهم في أفراحهم . . . أصغوا جيداً وأصيخوا بمسامعكم لضحكته السعيدة المترددة أصداؤها في منزل العروس !

كان أنبياء اليهود عبوسين مقطبي الوجوه أبداً ؛ ولذلك قلما نجد سوى آثار ضئيلة للافراح في العهد القديم من أوله الى آخره . لان واجب النبي الاوحد كان ينحصر بتوبيخ الناس على خطاياهم وأنذارهم بالويل والثبور وعظائم الامور . اذهب الى المكتبة العمومية في مدينة بوسطن « الولايات المتحدة » وتأمل جيداً في جميع صور الانبياء ، أنك ولا شك تقف أمامها متهيباً محترماً ، ولكنك لا تود أن تقيم هنالك طويلا . لان هؤلاء الاشخاص ليسوا من الطبقة التي تريد أن تختار منها رفقاء لك في سفراتك المبهجة على الارض .

وقد كان يوحنا المعمدان الحلقة الاخيرة من سلسلة الانبياء العبوسين المنذرين بالويل والخراب . ولذلك ترك المدن وهو يحسبها شريرة لا أمل بخلاصها ، واتخذ مقره في البرية على شواطىء الاردن وكان لباسه من وبر الابل ، وطعامه الجراد والعسل البري . وقد

قام بأصوام وأسهار طويلة ، قبل ان حمل للعالم انذراته المرعبة .
وكان يرفع ذراعه العارية النحلة ويصرخ بابناء المدن المزدحمين
لسماع كلامه قائلا : « توبوا ما دامت الفرصة سانحة لكم . ان الله
قد قطع حبل رجائه بالناس . وقد نفدت جعبة صبره ؛ ولذلك سينزل
في العالم قصاصه الصارم في ساعة لا ينتظرها العالم . » وكان الناس
يجتمعون الى خيمته في البرية لسماع انذاراته التي كانت تنقض
عليهم انقضاض الصواعق فتقضي على البقية الباقية من افراحهم

وقد جاء الشاب النجار من دكانه في الناصرة ليصغي الى اقوال
النبي الجديد مع الجماهير . فهل كان لتلك الاقوال قسطها من التأثير
في نفسه ؟ وهل آمن كما آمن غيره ان نهاية العالم قد دنت ؟ وهل
وجد نفسه على مسرح الحياة والواجب يقضي عليه بتمثيل دوره في
مأساة الوجود كما كان يوحنا صوتا صارخًا في البرية ينذر بالويل
والخراب ؟ ان لنا مما فعله بعيد زيارته لنبي الاردن دليلاً على
حدوث كل هذه التأثيرات في حياته . فقد انصرف من خيمة يوحنا
واخفى نفسه بين الاحراج . وهنالك في هدوء الطبيعة كان يحارب
انفعالات نفسه اربعين يومًا واربعين ليله . ولكنه تمكن في النهاية
من الفوز الكامل على جميع تجارب الشرير . فعزم عزمًا
اكيداً ان يعيش بين اخوته في الانسانية . وقد اقتفى آثار يوحنا
في وعظه وقتًا قليلا في بدء تعليمه . فكان يحدث الناس باقتراب
ملكوت السماوات ، ويحذرهم قائلا ان الوقت قصير والنهاية تدنو

كاللص بالليل في ساعة لا يعلمونها . ولكنه عدل عن هذه الطريقة المخيفة شيئاً فشيئاً وشرع دعوته الى البر بطريقة اكثر غبطة ومسرة من طرائف الانبياء . ولم يبق في اقواله من اثر للاله الذي هو قاض جبار يفتقد ذنوب الاباء بالابناء ولا تعرف الرحمة سبيلاً الى قلبه . وصار اباً محباً عطوفاً . وهو نفسه كان يظهر للناس انه ليس بالنبي العبوس بل هو صديق حميم ورفيق لا تفارق الابتسامة الجميلة شفتيه ولاجل هذا جميعه نرى يوحنا وهو في غيابة سجنه مثقل الفكر بالشكوك والاضطرابات الكثيرة من جراء هذا المعلم الجديد . فهل كان هذا النجار الناصري هو بالحقيقة الرجل الذي ترقب مجيئه لا كمال عمله ؟ ألم يكن يوحنا نفسه مخطئاً بمثل هذه العقيدة ؟ وما هذه الاشاعات التي كان يسمعها عن تصرف يسوع — كحضوره في حفلات الانس والطرب ، وعدم تقيده بفرائض الشريعة وخرقه حرمة الصيامات مع تلاميذه ؟ وما معنى هذا التصرف الذي لا ينطبق على سيرة الانبياء ؟

ولذلك ارسل يوحنا اثنين من تلاميذه ليراقبوا ويسألوا . واذا عرف يسوع الفرق العظيم بين آرائهم وآرائه ، لم يشأ أن يجادلهم او يقف أمامهم وقفة المدافع عن نفسه ، ولذلك قال لهم : «اذهبوا واخبروا معلمكم بكل ما رأيتموه وسمعتموه ، المرضى يتعافون والعميان يبصرون ، والمساكين يبشرون .... بالحق تسمعون انني لا اصوم ولا اعرض عن مسرات الايام والليالي . قد قام يوحنا

بعمله خير القيام . ولكنني لا استطيع ان اقتفي آثاره في عملي . فالواجب يقضي على ان أكون كما أنا من غير ان اتقيد بسلوك الذين جاءوا قبلي . . . وها أنتم تنظرون نتيجة اعمالي . . . وهي دليلي على صحة رسالتي . »

فقد احب الحياة مع الشعب . وكان يحضر جميع الاعياد في اورشليم ، ليس لمجرد المحافظة على التقاليد الدينية فحسب ، بل لانها افضل الفرص للاجتماع بالناس الذين كانوا يفدون الى المدينة العظيمة في تلك المواسم ، ولم يكن احب على قلبه من رؤية اخوانه ومحادثتهم . ولذلك نخطيء كثيراً اذا كنا ننظر اليه كغريب عن الجمهور . فقد كان لاحاديثه المقام الاول في نظر الفقراء ، وكانوا يصغون الى كل كلمة تخرج من فمه بلذة ولهفة . واصدق اصدقائه كانوا من عامة الناس رجالاً ونساء . ولكن هذا لم يحل دون تقرب العظماء منه . فان تاريخ حياته ممتلىء بالعبارات الاتية . . . « وجاء اليه احد الزعماء يدعوه لكي يتعشى في بيته . » . . . « وقد احبوه كثيراً و رغبوا اليه ان يقيم عندهم، فاقام بينهم يومين.» . . . وبعد توبيخه المشهور للفريسيين وتسميته اياهم « بالمرائين » « واولاد ابليس ، » عندما كانت سماء حياته تتلبد بغيوم العاصفة الاخيرة ، لم يستطع الرؤساء ان يحرموا انفسهم من لذة التمتع برؤية وجهه اللطيف وسماع كلماته العذبة . ولذلك نقرأ في الحوادث الاخيرة لحياته ان «احد زعماء الفريسيين جاء اليه يلتمس منه أن يتعشى في بيته.»

لم يقم في العالم رجل عمومي جمع له من الاصدقاء والمعجبين ما جمع يسوع . فكان له اصدقاء يتفانون في بذل كل ما في وسعهم من اجله ، من اعلى سلم الطبقات الاجتماعية الى أسفلها . ان نيقوديموس ، العضو النافذ الكلمة في مجلس اليهود الاعلى لم يتجاسر على الانخراط في سلك التلاميذ لانه كان يخاف على مركزه الكبير ، ولكنه كان صديقاً حميماً ليسوع سحابة حياته وخصوصاً في نهاية المأساة الكبرى . وهنالك الغني المجهول ، الذي كان يملك بستاناً عظيماً في جبل الزيتون ، فانه قدمه ليكون مقراً اخيراً لراحة المعلم المحبوب . وعندما احتاج الى مكان يتناول فيه العشاء الاخير مع تلاميذه لم يرَ نفسه مضطراً الى كبير الاهتمام بل ارسل كلمة بسيطة الى احد الزعماء في المدينة فكان له ما اراد . وكان احد القواد الرومان العظماء يعد نفسه سعيداً بان يحسب بين معارفه وكانت زوجة قهرمان هيرودس . وقد يكون ذلك بالاشتراك مع زوجها ، في مقدمة العاملين على خدمته وراحته . وفي ساعات الآلام الاخيرة ، بعد ان تم لبغض اعدائه ما ارادوا من تعليقه على خشبة العار وتركه جثة هامدة لا حراك بها ، نرى رجلاً غنياً اسمه يوسف — وهو الغني الذي يكون في عالم النسيان مع جميع اغنياء ذلك الزمان لولا هذا العمل العظيم الذي اظهر به محبته وصداقته للمعلم المحبوب — يتقدم الى بيلاطس ويلتمس منه جسد يسوع

فيغسله بالطيب ويحنطه ويلفه باكفان الكتان الثمين ويضجعه في قبر جديد .

هذه بعض نماذج لأصدقائه من الطبقات الممتازة في ذلك العهد. فمن أية الطبقات كانت بقية أصدقائه ومريديه ؟ من جميع الطبقات . فهنالك الفريسيون ، والصيادون ، والتجار ، والعشارون ، والنساء المهذبات، والزواني ، والجنود ، والمتشرعون ، والمتسولون، والبرص ، والكتبة ، والسكيرون والخطاة . ما أدهش المنظر الذي كانوا يؤلفونه وهم يسيرون وراءه في الشوارع ، أو يجلسون حواليه على الاعشاب الخضراء في تلال جبال الزيتون حيث ألقى خطبته الطويلة الخالدة ! كيف كانوا يفقهون الغاية السامية من الأجوبة التي كان يقدمها عن أسئلة المستفهمين والمجربين في كل يوم من حياته ! وأية مجادلات كانت تقوم بينهم . ومواضيع متضاربة بعضها مضحك وبعضها يحمل الى التفكير والتأمل ! قد أحب يسوع كل ذلك ـ أحب ازدحام الجماهير، ومناقشاتهم ومجونهم ، ومؤاكلتهم ومحادثتهم بعد الطعام بالملح والنوادر المضحكة ! وعندما انتقده الفريسيون بسبب هذا وبالغوا في الطعن به لانه لم يكن مع تلاميذه يحافظون على الصوم وغسل الايدي قبل الطعام وغير ذلك من توافه الناموس وفقاقيع الشريعة ، أجاب بذلك الجواب العظيم الذي أوضح به الغاية الرئيسية من رسالته بقوله :

« هل يصوم أصدقاء العريس ما دام العريس معهم ؟ كلا انهم

لا يفعلون ذلك بل يتمتعون بأفراح كل ساعة يقيمها بينهم . وأنا العريس ، وهذه ساعات الاحتفال بعرسي . فدعوا أصدقائي يفرحون معي في هذه الاويقات القليلة التي نجتمع فيها معاً . فسيكون لهم متسع طويل من الوقت للافكار الرصينة والتأملات العميقة بعد ذهابي . »

هذه هي الصورة التي رسمها بريشته الساحرة لذاته — عريس ! روح البهجة والغبطة في كل مجتمع سعيد ؛ ومبشر يحمل بشائر الفرح لجميع القلوب التعيسة لترافقها الافراح سحابة الحياة . ولذلك لم يحترم ناموس الفريسيين — الضيق المظلم .

كان الناموس يقول : « يجب أن تمشي يوم السبت الى حد محدود . » ولكن يسوع كان يضرب بهذه الوصية عرض الحائط ويمشي حيث شاء والى حيث أراد .

وكان الناموس يقول : « هذه المآكل تأكلها وتلك لا تقربها . »

وكان يسوع يقول : « انك لاتتنجس بما يدخل في فمك ، بل بما يخرج منه . »

وكان الناموس يقول ، « جميع الصلوات يجب أن تتلى على ما هو محدد في كتب الشريعة . ولا يقبل الله صلاة غيرها . »

ولكن يسوع كان يعتقد ان هذا محض تجديف على الله . لأن الاله الذي علم به لم يكن سلطاناً عاتياً ولا مشترعاً ظالماً قاسياً ولا كاتباً دقيقاً في تفنيد كل صغيرة أو كبيرة من بنود الشريعة .

ولذلك قال للناس مرة ، « ان الله روح . وبين روح الله العظيم وأرواح الناس — التي هي أجزاء صغيرة من روحه — لا يجوز لأي بشري على الارض أن يتوسط بالقواعد والنظامات والفرائض العالمية . »

وقد قدم للجماهير مرة مثلا أثار الغضب في صدور المتمسكين بحروف الشريعة وقد يكون في مقدمة العوامل التي غرست بذور بعضه في قلوبهم . قال ، كان لرجل ابنان . وكان الكبير تقياً محافظاً على فرائض الناموس ، يشتغل بجد ونشاط ، ويوفر الاموال التي يحصل عليها بعرق وجهه ولا ينفق بارة واحدة على الولائم والافراح . ولكن الناس كانوا يأبونه كأنه مصاب بمرض وابيء ويتمنون ألا ينظروا وجهه .

وكان الصغير جاهلاً قلما يفوز بعمل من أعماله ، وقد حمله تذمره من المعيشة في مزرعة أبيه الى أخذ حصته من ثروة والده والسفر الى بلاد بعيدة حيث أنفق أمواله بالخلاعة والفجور ولم يبق له أخيراً ما يسد به رمقه . واذ كان يقضي جوعاً في غربته ندم من صميم قلبه على سوء تصرفه ورجع في طريقه الى منزل أبيه . وكان الوالد الحنون منذ فارقه ابنه لا يهنأ له عيش ولا تتم له راحة بدونه وهو يؤمل أن يراه في بيته ثانية . ولذلك كان فرحه عظيما برؤيته راجعاً اليه فلم يملك نفسه أن حوطه بذراعيه وضمه الى صدره يقبله بفرح عظيم وحمله وهو يرقص طرباً الى داخل داره .

ثم صاح بالخدام ، « هاتوا العجل المسمن واذبحوه ، وأعدوا معدات الوليمة ، وادعوا الجيران والاصحاب لنفرح ونطرب . لأن ابني هـذا الذي تركني عاد الي ، وقد كان ميتاً بفضيلته وأخلاقه الـكريمة فعاش ورجع تائباً نقياً كالثلج . »

وقد شملت الافراح جميع من في البيت في تلك الليلة ما عدا الابن الاكبر . فقد كانت أشـباح الـكآبة والحسد مرتسمة على وجهه الذي لم يعرف الابتسامة في حياته . وقد أبى الدخول الى البيت رغما عن تضرعات أبيه ، ومع انه كان كثير الاحترام لوالده الشيخ ، فانه قرصه بجوارح الـكلام قائلا : « انني لا أريد أن أدخل الى بيتك . فقد طالما تعبت واشتغلت واصلا النهار بالليل لـكي أجمع لك المال ولم أفرح قط في حياتي مع أصدقائي ومعارفي . ولـكن هذا الابن الصغير الـكافر الشرير لم يعرف غير الملاهي والتبذير في حياته وقد أنفق أموالك على الزواني و بذر ثروتك في بيوت الشر والفساد وها هو يعود اليك فتفتح له أبواب منزلك وقلبك ! ان هذا لأمر لا يطاق ولا يحتمل ! »

بيد ان الوالد الصالح لم يدافع عن الابن الصغير ولـكنه وبخ الابن الـكبير . وقد انقضت هذه القصة انقضاض الصاعقة على جميع المتمسكين بحروف الناموس دون روحه من الجماهير التي سمعت كلامه . فقد كانت الغاية منها واضحة لـكل ذي بصيرة . وكأنما أراد يسوع أن يقول : « ان هنالك طريقتين يستطيع الانسان أن

يتلف حياته بهما . فالواحدة تقوم بالهرب من الواجب والعمل على كآبة الوالدين وأذية الرفقاء ، وقتل الصلاح في طبيعة الانسان . وهي طريقة فاسدة يجب أن يتوب عنها الانسان ويرتد عن اعوجاج سيرته لـكي يستحق الرجوع الى بيت أبيه .

« والطريقة الثانية فاسدة كالاولى . فالله جواد فياض ، والانانية في الاخذ والتحصيل خطيئة في عينيه . فهو يضحك بأشعة الشمس ، ويترنم بأناشيد الطيور . وكل من لا يضحك ولا يترنم غريب عنه . وقد بذل الله كل عنايته ليجعل هذا العالم مكاناً للغبطة والسرور . فكل من لا يجد لنفسه ولغيره لذة ومسرة في هذا العالم يجدف على اسم الخالق ويكفر بنعمته . ومهما كانت تصرفات أمثال هذا العبوس مستقيمة فان روحه شريرة . . . . فالويل لـكم أيها الـكتبة والفريسيون! لانكم تدققون في تقديم العشر من وارداتكم الى الهيكل وتبالغون في ضبط التوافه الصغيرة . ولـكنكم تعرضون عن ثقيلات الناموس — القاضية عليكم أن تتركوا العالم أوفر غبطة وبهجة من الساعة التي دخلتم فيها الى هيكله المقدس . »

هذه هي رسالته — الآه سعيد ، يريد أن يكون جميع أبنائه وبناته سعداء مثله .

وكان كلما تقدم في العمل تزداد ثقته بنفسه وبالواجب المقدس الذي يقوم به . وليس في جميع كتب الآداب عبارات أشد قساوة من أنذاراته وتوبيخاته للفريسين المتظاهرين بالرصانه المعرضين عن

الضحك والمؤانسة. وكانت الجماهير تصغي الى كلامه وهو يوبخ الرؤساء والزعماء ويصرخون له بصوت واحد لانه مع حداثة سنه تجاسر على مقاومة الزعماء ومع قوله انه أعظم الانبياء فهو لم يعلم أن الحياة قصاص يجب أن نتمه بصراحة بل هي عطية يجب أن نتمتع بها بلذة وحبور. وكان كجميع العظماء لا يلتفت الى اعتراض ولا يعبأ بانتقاد. وضع أحد عظماء الانجليز القاعدة الآتية لحياته، قال: «لا تفسر؛ لاتتردد؛ لا تعتذر؛ أعمل عملك بحزم وذرهم ينبحون.» وقد كانت هذه قاعدة ليسوع أيضاً. ولذلك كان يقول ما معناه: «لا يستطيع الانسان أن يقوم بعمل جليل في العالم اذا كان يعير كل انتباهه لتقولات الجماهير وأشاعاتهم. فالناس يحبون أن ينتقدوا أعمالك كيفما كانت أقوالك وتصرفاتك. تأمل في يوحنا المعمدان. فقد جاء لا يأكل ولا يشرب فقالوا أن فيه شيطاناً. وجئت أنا آكل وأشرب، وما عساهم يقولون عني؟ أكولا مبطاناً وشريب خمر!»

وقد يكون أورد ذلك على سبيل المجون عن نفسه وعن يوحنا ولكن الانجيل لا يذكر شيئاً من هذا. لان الكثير من مجونه الحكيم قد ضاع ولم يدونه لنا المؤرخون المعاصرون له لشدة تمسكهم بالحوادث الرصينة. ولكن خذ لك الحادثة التي جرت على بركة بيت حسدا فقد كانت البركة في أورشليم عند باب الغنم وكانت لها قوة على شفاء المرضي. وكان المئات من المصابين بأمراض مختلفة ينتظرون على حافاتها الى أن ينزل ملاك الرب فيها ويحرك الماء، فالذي كان

يغتسل أولا من بعد تمويج الماء كان يبرأ من كل مرض مسه . وفيما يسوع مجتاز بتلك البركة سمع صراخ شيخ ملقى هناك منذ ثمان وثلاثين سنة . وكان في كل مرة يتحرك الماء يهم بالنزول ، فيسبقه غيره ممن هو أقدر منه أو ممن له ما ليس لهذا المسكين من الاصدقاء والاعوان ولذلك كان يرجع حزيناً الى مقعده يندب سوء حظه . وقد كان يندب سوء طالعه في ذلك اليوم عندما مر به يسوع ونظر اليه مبتسماً .

ولما علم يسوع أن له زماناً كثيراً ينتظر الشفاء على تلك البركة قال له : « أتحب أن تبرأ ؟ »

فحزن الشيخ المسكين لهذا السؤال وخيل اليه أن المعلم يهزأ به سؤال بليد بالحقيقة ! فهو بدون شك يحب أن يبرأ ! أفلم يبذل قصارى جهوده في سبيل الشفاء مدة ثمان وثلاثين سنة ؟ فلماذا يسخر به بمثل هذه الطريقة ؟

ولكن يسوع لم تفارقه ابتسامته . لانه عرف عن حقيقة المريض أكثر مما كان يعرفه المريض نفسه . فقد كان على أتم ما يرام من الصحة والسرور . وكان الناس يجتمعون اليه في تلك النواحي لسماع كلامه ؛ ولم يكن بين جميع المرضى المتذمرين في ذلك المكان أحد غيره يحدث الجمهور ويعزيهم على مصائبهم . فقد كانت آلامه أعظم من آلام الجميع : ولذلك كان أقدر منهم على تعزية الاخيرين . ولم تكن في الاقامة على حافة البركة أقل مشقة عليه ، بعد أن تعود ذلك

مدة ثمان وثلاثين سنة . أما القادمون حديثاً فان الاقامة هناك كانت ثقيلة الوطأة على أرواحهم .

كانت عينا يسوع تنفذان بأشعة عجيبة الى أعماق النفوس ولذلك كان يدرك ما في قلوب الناس بلحظة واحدة . وقد أحب أن يجاري هذا الشيخ كما أراد ، ولهذا قال له :

« قم وامش . »

فتمقم الشيخ وتذمر ، ولكنه لم يقدر أن يقاوم أمر المعلم النافذ . فوقف ، وجد ، لشدة دهشته ، انه قادر على الوقوف ، فطوى فراشه وحمله وسار في طريقه . وعند ما رأى الجمع ذلك أخذتهم الدهشة والحيرة ، وقبل أن يتفوهوا بكلمة واحدة انصرف يسوع عنهم وسار في طريقه . أما التلاميذ فلم يستطيعوا لشدة اندهالهم أن ينبتوا ببنت شفة ، ولذلك أبطأوا في مشيهم وراء يسوع الذي كان يتقدمهم لوحده . ولكن هب انهم تبعوا يسوع على الأثر ؛ أفلم يكونوا سمعوا قهقهته عن بعيد ؟ . . . فقد كانت المسئلة كلها ضحكاً على الشيخ المسكين . فقد تصور قبل شفائه انه تعيس سيء الحظ ، ولكن سوء حظه لم يبدأ حتى ساعة الشفاء . . . لانه خسر من تلك اللحظة كل ما كان يشاهده من عطف الناس عليه . . . . وماذا يقول أهله اذ يشاهدونه داخلا البيت وحده في تلك الليلة ؟ . . . وشد ما كان عليه أن يرتعد عند الصباح اذ يجد نفسه مضطراً الى العمل بعد أن تعود الكسل مدة ثمان وثلاثين سنة ! !

ان أقصر عبارة في العهد الجديد هي « بكى يسوع . » فقد حفظ الانجيل هذه الحادثة المحزنة بكل عناية وأمانة . وكم كنا نود لو ان الكاتب أخبرنا عن حوادث الليلة التي عقبت شفاء الشيخ على بركة بيت حسدا . هل وقف يسوع فجأة في نصف العشاء ووضع كأسه من يمينه على المائدة وأغرب في الضحك ؟ فاذا كان قد فعل ذلك فان التلاميذ ولا شك كانوا تحيروا — وقد طالما كانت تحيرهم كل حركة من حركاته — بيد اننا نستطيع بكل ثقة أن نتصور ما كان يتردد في فكره في ذلك المساء وهو يرى بسابق ادراكه الحالة التي سيصير اليه ذلك المريض الذي شفاه . نحن واثقون بأن يسوع ضحك كثيراً في تلك الليلة .

قال أحد الحكماء أن النبوغ كائن في مقدرة الانسان أن يصير صبيًا متى أراد . وقد كان للرئيس « لينكلن » مثل هذا النبوغ . فقد كان مرة في البيت الابيض جالسًا الى مكتبه ومن حوله الوزراء صامتون يفكرون بعظمة الاحمال الملقاة على عواتقهم . وكان ذلك الاجتماع من أهم الحوادث التاريخية التي عملت على رقي الامة الاميركية والسير بها الى الامام في معارج الحضارة . وعوضًا عن أن يشرع « لينكلن » في درس القضية المطروحة أمامهم ، أخذ لشدة دهشتهم كتابًا من مؤلفات « ارتيموس ورد » ward المجوني المشهور وشرع يقرأ بصوت عال قصصًا مضحكة لا دخل لها في الموضوع البتة .

وكان بين العبارة والعبارة يضحك مقهقهًا حتى يستلقي على ظهره .

أما الوزراء فأخذ الدهش بمجامع قلوبهم ولم يتفوهوا بكلمة قط لشدة تأثرهم ! مجون وضحك في مثل هذه الساعة الخطيرة في تاريخ الامة ! ذلك كفر وتجديف !؟ ولكن « لينكان » لم يعبأ بوجوههم العابسة ، بل ظل يتابع قراءته وضحكه حتى انتهى الى آخر الفصل . حينئذ نظر الى وجوههم الكالحة وهو يبتسم قائلاً :

« لماذا لا تضحكون أيها الاسياد ؛ انني بما يحيط بي من المتاعب والهموم وما يضغط فكري من أثقال الاحمال وأعباء الاعمال أكاد أموت في وقت قصير اذا لم أتناول جرعات كثيرة من دواء الضحك الناجع : وأنتم أيضاً تحتاجون الى هذا الدواء . »

قال هذا ونهض من كرسيه الى حيث كانت قبعته الطويلة موضوعة فتناول من وسطها « ورقة صغيرة بيضاء » ـ كما قال ستانتون.

وقد كانت هذه « الورقة الصغيرة البيضاء » أعلان تحرير العبيد.

وقد تمكن « ستانتون » والوزراء رفقاؤه بالجهد الكثير أن يخفوا غضبهم ونفورهم من الرئيس ويحافظوا على مجالسهم . لانهم لم يستطيعوا قط أن يفهموا الرجل . لانه كان يزعجهم بخروجه عن كل العادات المرعية في البيت الابيض وتصرفه تصرف الاولاد الصغار في الكثير من المواقف الحرجة وانفاقه الوقت بما لا طائل تحته . وقد كان تلاميذه وأصدقاؤه كوزراء « لينكان » من هذا القبيل . اذ كيف يستطيع رجل بهذا المركز الكبير أن يشغل نفسه بهذه الامور الصغيرة التي تقطع عليه مجرى أفكاره وتقف عقبة في سبيل قضاء

أعماله ؟ وليس شك في ان أصدق مظاهر العظمة الحقيقية كائنة في رحابة الصدر واستسهال الصعب والظهور بعدم الاكتراث العظيم تجاه اكبر القضايا وأوفرها تعقيداً. قال «ستيفنسون» Stevenson ، « ان شدة القلق وانشغال الفكر في الاعمال دليل على الضعف والعجز في القوة .» وقد كان التلاميذ شديدي القلق في جميع أعمالهم وخصوصاً يهوذا . لقد كان أمين الصندوق العام ، وكان كثير الاضطراب بسبب النفقات المطلوبة منه وهو لا يعرف باباً جديداً للإيرادات . ولكن يسوع كان يطرد كل هذه الاهتمامات الصغيرة بابتسامة من شفتيه .

ولذلك نراه يقول لتلاميذه ، « تأملوا في زنابق الحقل ، فهي لا تتعب ولا تغزل ، ولكن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . » كل هذا كان جميلاً من الجهة الخيالية الشعرية ولكنه لم ينجح في تحويل الاسخريوطي عن عقيدته . لانه كان يعرف ان الانسان لا يستطيع أن يتحرك في هذا العالم بدون المال ، ولذلك حصر كل جهوده في تحصيل الثروة . وكان للتلاميذ الآخرين هموم ومتاعب أخرى . فكانوا يتزاحمون على الصدارة والوجاهة في الملكوت المقبل ؛ ولذلك كانوا يثورون على كل من يدعي التلمذة للمعلم أو يصنع العجائب باسمه حاسبين مثل هذا مغتصباً يود هضم حقوقهم الشرعية . وكانوا ينسحقون تحت أثقال الاعمال الكثيرة التي يضيق الوقت أمامهم دون القيام بها .

ولـكن يسوع كان يقوم بجميع أعماله بملء السهولة كأنه لا يفعل شيئاً هاماً . ولذلك كان الاولاد يتبعونه حيثما سار . لان الهموم والظروف قلما تعني شيئاً في عقيدتهم . فهم لا تجذبهم الوجاهة ولا تشغل أفكارهم الصدارة والعظمة . وهم ينظرون بقوة غرائزهم الى اللباب دون القشور والجواهر دون الاعراض وان خيل للناس انهم غير ذلك . و بالمعرفة المتجمعة فيهم من خلاصة حكمة العصور يعرفون صديقهم من عدوهم ببصيرة وتمييز قلما يحلم بمثلها الشيوخ الحـكماء .

ولذلك كانوا يعرفون صديقهم يسوع ، و يزدحمون حواليه ، و يجلسون على ركبتيه ، و يجذبون أهداب ثيـابه ، و يبتسمون له متضرعين اليه أن يقص عليهم الـكثير من قصصه الممتعة ، وقد كان كل هذا عملا لا يليق بالمعلم وقتلا لوقته في عيون التلاميذ . ولذلك كانوا في مثل هذه الظروف يأتون اليه مذكرينه بنشوفة بالاعمال الهامة التي يجب أن يقوم بها ، و يطردون الاولاد من أمامه .

ولـكن يسوع لم يكن يصغي اليهم بل كثيراً ما وبخهم قائلا : «دعوا الاولاد يأتون اليَّ ولا تمنعوهم ! » وكان يضيف الى ذلك الاقوال التي تظهر بملء الوضوح الغاية الرئيسية من بشارته . كقوله : « فان لمثلهم ملـكوت السماوات . » و « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فانكم لن تدخلوا ملـكوت السماوات . » أجل ، انكم لن تدخلوا ملـكوت السماوات . » حتى تصيروا مثل الاولاد . . . الاولاد الصغار . . . ضاحكين . . . فرحين . . . غير مهتمين . . .

واثقين ببساطة . . . محبين ، عطوفين .

على ان يسوع لم يقض أيامه كلها بين الجموع . فقد كان يهجر الناس ساعات طويلة للاجتماع بأبيه ، وأعادة ملء خزانات نفسه بمياه القوة والمحبة . ولذلك كان في النهاية على أتم الاستعداد لملاقاة العاصفة الكبرى بقلب لا يهاب الموت . فقد عرف قبل دنو الساعة الاخيرة بأشهر كثيرة ان زيارته لاورشليم تضع حداً نهائياً اعماله ؛ ولكنه لم يتردد قط في القيام بهذه الزيارة . وفيما هو سائر في طريقه الى تلك الزيارة ، والافكار تملأ رأسه عما ينتظره من الاخطار ، وكل ما في العالم من الاحمال ملقى على كتفيه ، سمع رجلاً من جوانب الطريق ينادي بأعلى صوته قائلا : « يا يسوع . . . يا يسوع . . يا ابن داود . . . ارحمني ! »

وقد كان الصارخ متسولاً أعمى . . . فأسرع اليه التلاميذ في الحال يأمرونه بالسكوت . وكانوا يقولون فيما بينهم ، ما أحمقه ! ألا يرى ان المعلم منشغل الفكر ؟ ومن هو ليقف الرب في طريقه من أجله ؟ . . . اسكت ، اصمت أيها الاعمى . . . ارجع في طريقك من حيث أتيت . . .

ولكن الرجاء الحاد لا يعرف الحدود . فان هذا الاعمى الفقير عرف ان هذه الفرصة لن تسنح له ثانية . . . ولذلك لم يعبأ بتوبيخهم اكثر مما اهتم لحاجته . بل صرخ ثانية بصوت أعلى من ذي قبل قائلاً ، « يا يسوع ، ابن داود ، ارحمني . »

فوقف يسوع ، وقال :

« من يناديني ؟ »

فأجابه التلاميذ ، « لا أحد يا رب . . . ولكن الصارخ أعمى فقير . . لا قيمة ولا اعتبار له . . . برتيماوس المتسول المجنون . . . لا أحد يستحق عنايتك وانشغال فكرك . . . وسنعتني نحن بأمره . »

فقال يسوع ، « احضروه الى ههنا . »

فقادوه في الحال وهو يرتجف من شدة الرجاء والايمان . فنظر المعلم بعينيه المنيرتين الى عيني الاعمى المظلمتين . والفكر الذي كانت تثقله الاحمال العظيمة التي لم يحمل مثلها فكر سواه ، أفسح في أعماقه مجالا لقضية رجل مسكين حرمته الحياة من بصره فبات يعيش في الظلمة سحابة عمره . كان الاعمى في حاجة الى المعلم ، فأوجد المعلم الحال وقتاً للعناية به . . .

ألقى أحد الكهنة ، منذ نيف ومابة سنة ، عظة بليغة في كنيسة القديس يوحنا في نيويورك وشرح بملء الايضاح ضعفات الطبيعة البشرية وشرورها وأظهر الآيات الكتابية التي تبرهن غضب الله على الاشرار وصرامة العقاب الذي سينزله بهم في يوم الدين . وكان بين المصلين شيخ طاعن في السن لم يساعده الحظ على البلوغ الى قنن الشهرة العالمية ولكنه كان يعيش في أسمى قنن الفكر والفهم في عهده ، ولذلك حفظ اسمه في تاريخ الامة الاميركية حتى اليوم . وعند ما خرج من الكنيسة دنت منه امرأة وقالت له :

« هل أحببت عظة اليوم أيها السيد « بور » Burr ؟ »

فأجابها على الفور قائلا : « في عقيدتي ان الله أفضل كثيراً مما يصوره لنا الناس . »

هذه هي نفس الرسالة التي حملها يسوع للعالم — وخلاصتها ان الله أفضل كثيراً مما يستطيع ايمان الانسان أن يصل اليه . فهو ليس بالخالق الشرس ، الذي فقد سلطته على خليقته ، فعمد في شدة غضبه الى القضاء عليها بكاملها . كلا ، ولا هو بالقاضي الاحمق الذي يتلفظ بأحكامه بالظلم والعدوان . ولا هو بالملك المغرور الذي يجب أن يتملقه رعاياه ويتذللوا أمامه ليشفق عليهم ويرحمهم . ولا هو بالكاتب الدقيق الذي يقيد جميع الرذائل ضد الفضائل ويعمل ميزانيته بصرامة وقساوة ، كلا والف كلا ! ليس الله بكل هذا . . . بل هو رفيق حليم ، وصديق حميم ، وأب عطوف يحب أن يكون جميع أبنائه فرحين أبداً .

ثلاث سنين كاملة قضاها يسوع متجولا على شواطيء بحيرته وفي شوارع المدن وساحات القرى معلماً الناس هذه الحقائق البسيطة عن أبيه الذي في السماوات . ثم جاءت النهاية ، ولم يبرد جسده الطاهر على خشبة الصليب حتى شرع العالم في تعذيبه ثانية . لأن الذي لم يحفل في حياته قط بالطقوس والاحتفالات الناموسية جعل في الحال صنما من أصنام الطقوس والتقاليد البلهاء . فهرع الناس الى الصوامع هرباً من العالم ؛ وانعكفوا على الامساك وقهر الذات بالجلد ، والمسوح ، والهرب من الافراح ، والانقطاع عن المآكل والمشارب ، وهم

يصرخون بأعلى أصواتهم انهم تلاميذ مخلصون يقتفون خطوات ذلك المعلم — الذي أحب الجماهير، وجمع الاولاد الصغار حواليه في كل أسفاره، وكان يختلف الى الولائم والافراح والاعراس مع أصدقائه! وكان يقول للناس سحابة حياته على الارض: « ارفعوا رؤوسكم يا اخوتي وأحبائي! فأنتم أسياد الوجود ... ولم تنقصوا الا قليلا عن الملائكة ... لانكم أبناء الله . »

وقد كان عشاؤه الاخير مع تلاميذه ممتلئاً بالتذكارات الرصينة الهادئة . فقد كانت عقولهم مملوءة بالانذارات . وكان يخاطبهم بحمية وهو يوصيهم بكل مافي قلبه من المحبة أن يرفعوا قلوبهم، ويفكروا بنبالة في ذواتهم، ويملأوا أرواحهم بالايمان الصحيح الفائز . ومن أقواله لهم ما يأتي :

« سلامي أعطيكم ، سلامي أترك لكم ، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا .»

« كونوا فرحين . »

السلام ... الفرح ... هاتان هما الكلمتان اللتان أراد يسوع أن يذكره تلاميذه بهما . ولكن العالم قد احتفظ على ممر الاجيال بالكذبة الممقوتة القائلة أنه لم يضحك قط في حياته .

الفصل الرابع

طريقته

كثير هم الزعماء الذين وضعوا البرامج الجسورة العظيمة لاعمالهم ولكن هذا البرنامج هو أقربها جميعاً الى العظمة الحق :

قال يسوع ، « اذهبوا ألى العالم أجمع ، وأكرزوا بالانجيل للخليقة كلها . »

تامل جيداً في الجسارة البالغة التي في هذا الامر . فان انتشار المدنية الرومانية في العالم المعروف في ذلك العهد كلف ملايين الارواح وملايين الاموال . ولكي نعمل اليوم على نشر رأي أو عمل جديد بين الناس نحتاج الى الكثير من الجهود والنقود للقيام بالتوزيع الواجب لنجاح العمل . ولم يكن لدى يسوع شيء من ذلك . لان جمعيته تألفت من بضعة رجال غير متعلمين ، وقد وجد أحدهم خائناً فترك الجمعية وانضم الى أعدائها . قد جاء يسوع مبشراً بملكوت عظيم وكانت نهاية تبشيره الموت على الخشبة ؛ ولكنه مع كل هذا تجاسر أن يحدث تلاميذه بالسيادة على الخليقة كلها . فما هو الينبوع الذي استقى منه مياه ايمانه بتلك الحفنة من الاتباع ؟ وما هي الطريقة التي تبعها في تعليمهم ؟ وما هي الاسرار التي تعلموها منه للبلوغ الى السيادة الحق على نفوس الناس ؟

كثيراً ما نتحدث في الدوائر الاقتصادية الكبرى بشريعة «العرض والطلب» التي تسير جميع الاعمال التجارية خاضعة لها . ولكن العرض يسبق الطلب في جميع الامور التي ليست حاجات ضرورية للحياة . فقد اخترع «الياس هو» Elias Howe ماكنة الخياطة ولكنها كادت ترث ويأكلها الصدأ قبل أن قبلت المرأة الاميركية باستعمالها . لان سرعة الالة الحديثة في خياطة ثياب المراة كانت تفسح أمامها متسعاً من الوقت ، ولم تكن تعرف كيف تقضي هذا الوقت في باديء الامر ، ولذلك اعترضت على اقتناء ماكنة الخياطة . فقد ولد الخيال في رأس «المستر هو» وصنع من خياله عملا حقيقياً ؛ ولكنه لم يستطع أن يبيع عمله ! وقد وصفه كاتب ترجمته بصورة فاجعة حيث يقول — أن الرجل الذي قام بما لم يقم به غيره من الجهاد لتخفيف وطأة الاعمال عن النساء اضطر أن يحضر جنازة المرأة التي أحبها بثوب مستعار ! وليس الرجال أقل عناداً من النساء في ما يخص الآراء الحديثة . فان الآلة الكاتبة (التيبريتر) اخترعت وصادفت نجاحاً في اختراعها قبل أن أقبل الرجال على اعتمادها في كتابة رسائلهم بزمن طويل . لانه كيف كان يمكن للتاجر أن يوجد المراسلات الكافية في عمله ليبرر نفسه أمام انفاق مايةريال ثمن مثل هذه الآلة ؟ ولكن عند ما أذن «رامنقتون» Remingtons لشركة «كليفراف» أن تصنع آلات باسم «رامنقتون» وشرعت

فتان من الباعة تتزاحمان في بيع الآلة الكاتبة زال نفور الناس عنها في الحال .

وقد صادف كل نوع من مخترعات الانسان مثل هذه الصعوبة قبل انتشاره . ومن اقوال « روبرت فولتون » Robert Fulton (الذي سير السفن بقوة البخار ، ما يأتي :

« فيما كنت اتمشى في كل يوم في ساحة الشحن التي كانت باخرتي تسير منها ، كنت أدنو من الجماهير المتفرجة عليها واتسمع على احاديثهم . وقد كانوا باسرهم مجمعين على الهزء والسخرية بي وبعملي . وكثيراً ما كنت اسمع ضحكهم . وقهقهاتهم ، واحتقارهم ، وتقديرهم للخسائر التي يتعرض لها الناس بسببي . وقد اطلقوا اخيراً على فكرتي اسم « جنون فولتون » بيد انني لم اتحول هنيهة عن طريقتي ولم توهن قوتي رغماً عن كل ما كان يحيط بي من مثبطات العزائم . »

هذه صورة واضحة لاخلاقنا الحقيقية — فنحن فى الغالب حكماء في احتقارنا للغير ، متسرعون في تثبيط همم المجاهدين ، واثقون بان ما لم يحدث فيما مضى لايمكن حدوثه في المستقبل . وقد كنا منذ الف وتسعمائة سنة أبعد جداً عن تصديق الجديد مما نحن اليوم ، لان العلم الحديث قد قضى على الكثير من ضعف ايماننا بالمستحيل وهزئنا بكل جديد مفيد . . .

« واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها . . . » لم يكن العالم في

ذلك العهد محتاجاً الى ديانة جديدة ؛ لانه كان ممتلئاً بالديانات الكثيرة الفائضة عن حاجته . وقد عرض يسوع ديانة جديدة على العالم ، وارسل احد عشر رجلا ليبشروا بمبادئها و يقضوا على جميع الاراء والافكار التي جاءت قبله و يبذروا عوضاً عنها بذور آرائه وافكاره !

وقد اظهر بهذه الشجاعة العجيبة نجاحه وتفوقه على جميع الانبياء والمعلمين الذين جاؤوا قبله . قد أوضحنا في فصل سابق . ان الانبياء القدماء كانت تنقصهم الطلاقة والبشاشة في حياتهم ؛ولكن ما اعوزهم من رقة الحياة وافراحها قدموا لنا عوضاً عنه من غزارة وحيهم وخيالهم . فقد حمل كل منهم رأياً ثوروياً جديداً الى العالم ، ونحن لذلك لا نستطيع ان ندرك الاهمية البالغة التي لعمل يسوع ما لم نتذكر انه بدأ حيث انتهوا . فبنى صرح ديانته الجديدة على الاساسات الراسخة التي وضعوها قبله . وها نحن ننظر قليلا الى اعمال كل منهم لوحده مبتدئين من موسى فصاعدا . ما اعظم الاعجوبة التي اجترحها هذا المعلم العظيم في امته ! فقد كان العالم ممتلئاً بالالهة في زمانه — الالهة العديدة من الرجال والنساء والحيوانات والتماثيل المصنوعة من الاخشاب والحجارة والمعادن — وكانت امته افقر الامم من هذا القبيل لانها لم تكن تقدر ان تفاخر باكثر من مائة الاه فقط ، لان العقل البشري لم يستطع قبل موسى أن يتخلص من الرأي القائل بان كل مظهر من مظاهر الطبيعة يمثل الهاً قائماً

وراءه . في ذلك العهد المظلم بتعداد الالهة جاء موسى الحكيم العظيم يحمل للعالم اثمن العطايا الباقية حتى اليوم بقوله « لا اله الاالله» ما اعظم هذه العبارة وما أكثر النتائج الصالحة التي نشأت عنها على ممر الاجيال . وقد تمكن موسى من قيادة الجماهير من ابناء امته الذين عاشوا في عبودية المصريين اجيالاً طوالاً — وانسحقت ارواحهم تحت عناء الاشغال الشاقة — فاقنعهم بحكمته وثاقب بصيرته أن هذا الاله الواحد الكلي القدرة هو صديقهم الخاص وحارسهم المحبوب ، فاشعل بذلك نيران الايمان في قلوبهم الغليظة وحولهم من عبيد ذليلين الى فاتحين غالبين !

وقد مات موسى فظلت الامة اليهودية سائرة في السراط المستقيم الذي اختطه لها ، حتى قام عاموص، وهو أعظم خليفة للزعيم العظيم موسى .

قال موسى ، « لا الاه الا الله . »

فاضاف عاموص الى ذلك قوله ، « الله هو الاه الحق . »

ان هذه الاضافة مترسخة في اعماق ضمائرنا . حتى أنه يستحيل علينا التسليم بانها جاءت جديدة في ذلك العهد . ولكن أذكر ولا تنس أيها القارىء الاديب الالهة الكثيرين الذين كانوا في أيام عاموص اذا شئت أن تحكم بعدل في أهمية اضافة هذا النبي على تعليم موسى، — خذ آلهة الاغريق مثلاً . فقد كان «زفس» رئيسهم الاعلى ظالماً عاتياً ينزل أفظع أنواع القصاص بكل مخلوق بشري

تسول له النفس أن يتدخل في رذائله مع عشيقاته الكثيرات . وكان في كل خصام أو حرب ينحاز مع الكفة التي تزيد رشوتها على رفيقتها . ولم تكن زوجته و بنوه و بناتها بافضل منه ؛ واداب الاله الاسرائيليين في معاملته للابرياء من الاطفال والشيوخ والنساء لم تكن بافضل من آداب «زفس» حتى أيام عاموص . فقد كان الاهاً تاجراً . لايهب النصر لاحد الا لقاء تضحيات معينة يجب أن يقوم بها نحوه وكان طماعاً شديد المطالبة بكل صغيرة أو كبيرة من امتيازاته الكثيرة ولذلك تفوق عاموص على سلفه بأن قدم للعالم الاهاً لاتشتريها الاموال والغنائم ، وهو يصم أذنيه عن سماع كل طلب ظالم ، ولا يميز في أحكامه بين قوي وضعيف ، أو فقير وغني. وقد جاء هذا الرأي غريباً جداً على العالم ولكن عاموص اقنع الناس فقبلوه وعملوا به وهكذا وصل الينا سالماً كالجزء الافضل من ميراثنا الروحي عن العالم القديم

ثم جاء هوشع . ولم تكن حياته سعيدة في بيته . فان امرأته تركته ، فقرر في كآبة قلبه ورغبته في الانتقام ألا يرجعها اليه أبداً . ولكن محبته لم تأذن له بذلك ، فرجع اليها ، وصفح عنها ، وأعادها الى بيته . وقد خطر له بعد ذلك في ساعات وحدته فكر عظيم جداً ! وخلاصته أنه اذا كان وهو المخلوق الضعيف يستطيع أن يحب بكل هذه التضحية المرأة التي لم تكن أمينة على عهده ، افليس الاله العظيم بالاحرى قادراً على مثل هذا الصفح ، بل على أكثر منه بما لا حد له ، ضد المخلوقات البشرية المولودة بالاثم والخطيئة ؛ وقد

الهب هذا الفكر قلبه ، وحرمه لذيذ رقاده ، وهو لايبوح به لاحد ، حتى وجد نفسه في أحد الايام أمام الشعب فاعلن لهم بغيرة متوقدة الاهاً قويًا بهذا المقدار حتى أنه يستطيع متى شاء أن يقضي على العالم بأسره ، ولكنه حليم صبور بهذا المقدار حتى أنه لا يفعل ذلك !

الاه واحد .

الاه عادل .

الاه صالح .

هذه هي الاراء الثلاثة التي قدمها للعالم الانبياء الذين جاؤوا قبل يسوع في أعظم المواضيع التي عالجها الفكر البشري على الارض . وقد مرت مئات الاجيال على أيام موسى وعاموص وهوشع . وتغير فكر الانسان في كل موضوع فكر به أخوه الانسان منذ ابتداء العالم ؛ ولكن العقيدة التي قدمها هؤلاء الانبياء الثلاثة في حقيقة الخالق ما برحت تسود على أفكار الناس حتى هذه الساعة .

ولكن ماذا ترك الانبياء الثلاثة من صفات الله ليضيفها اليه تعالى المعلم العظيم يسوع؟ قد تركوا فكراً واحداً لاغير ،وهو بالحقيقة أعظم من جميع الافكار التي سبقته حتى أنه أستطاع أن يحول أنهار التاريخ الانساني عن مجاريها . فقد دعا الانسانية الضعيفة الضالة أن تقف منتصبة وتنظر بشجاعة الى الله وجهًا لوجه ! وعلم الناس أن يطرحوا عنهم مخاوفهم وأوهامهم ، ويحرروا ذاتهم من قيود طبائعهم البشرية الضيقة المحدودة ويتخذوا سيد الخليقة أبًا لهم . وهو بالحقيقة الفكر

الاساسي" الذي بنيت عليه جميع الثورات ضد الظلم والاستبداد لتأييد الديموقراطية والحقوق الانسانية على الارض . لانه اذا كان الله أباً لجميع الناس ، فالناس اذن بأجمعهم بنون لله ، ولذلك فهم متساوون أمام عينيه ولا ميزة فيهم لملك على صعلوك . فلا عجب والحالة هذه أن يرتجف الرؤساء والزعماء من مثل هذا الفكر ! لانهم لم يكونوا مجانين ، بل أدركوا النتائج التي سيصل العالم اليها اذا عمل برأي كهذا. ولذلك رأوا أنفسهم بين شرين : قتل صاحب التعليم الجديد أو زوال سلطانهم ، فاختاروا الشر الأهون وهو الاول . ولا عجب أيضاً أن نرى ذوي السلطان في الاجيال التي جاءت بعد المعلم الأكبر يفسدون رأيه ويحوطونه بطوائف من التقاليد السقيمة والطقوس العقيمة ، حتى أمسى أبسط ايمان في العالم مجموعة معقدة من الوصايا الصارمة التي لا تتجاوز حدود « لا تفعل هذا ، ولا تفعل ذاك ! » وترتعد خوفاً من كل من يقول « افعل هذا ، وافعل ذاك ! » لان تعليم يسوع كان في عقيدة ذوي السيادة على ممر العصور كثير الاخطار والاضرار اذا انتشر لوحده من غير أن يقيد بالقيود الثقيلة ويجلل بالستائر الظليلة .

هذا هو التعليم الذي قدمه يسوع «للخليقة كلها» بواسطة رجاله الأحد عشر . فما هي الطريقة التي اعتمدها في نشر تعليمه ؟ كيف كان يقابل الراغبين في الايمان ؟ وكيف كان يعامل المعترضين على

أقواله ؟ وبأي نوع من التدابير الحربية غلب العالم وأقنعه على اقتبال تعليمه ؟

فيما كان راجعاً من أورشليم في أحد الايام بعد ان تم له النصر المبين في تطهير بيت أبيه من اللصوص الغادرين ، وصل الى بئر يعقوب تعباً من عناء الطريق فجلس يستريح هنيهة من الزمان . أما تلاميذه فذهبوا الى احدى القرى المجاورة ليبتاعوا لهم طعاماً ، ولذلك كان وحده على البئر . وكان أبناء مدينة السامريين المجاورة يستقون من البئر لهم ولمواشيهم . وبعد بضع دقائق من وصول يسوع جاءت امرأة سامرية الى المكان تحمل جرتها على كتفها . وكانت بين قومها ، السامريين ، وقومه ، اليهود ، عداوة قديمة العهد . وكان ناموس الفريسيين يقول ان اليهودي الذي يمر به ولو خيال شخص سامري يتنجس في الحال ؛ أما محادثة السامري فكانت جريمة لا تغتفر في نظر الشريعة . ولم تكتم المرأة نفرتها من وجود رجل يهودي على البئر . لان أقل كلمة تخرج من بين شفتيه كانت كافية لاثارة غضبها . فقد كانت قادرة على الاقل أن توليه ظهرها وترجع من حيث أتت تدعو انسباءها ليطردوه .

انك تشعر بحراجة الموقف ولا شك . فكيف يستطيع المعلم اليهودي أن يجد سبيلاً لمحادثة تلك المرأة ؟ وكيف يقدر أن يجعل السامرية التي تحظر عليها شرائع قومها مخاطبة اليهود الكفار أن تصغي الى رسالته ؟ موقف صعب ولا أصعب منه ! فان كلمة واحدة في غير

موضعها قد تعطل القضية بكاملها ! وكثيراً ما يكون السكوت في مثل هذه المواقف أفصح من الكلام . ولكن يسوغ أدرك السر الذي يتوقف عليه وحده النجاح في ما أراد . ولذلك لم يظهر أقل حركة أو اشارة تتبين المرأة منها انه عارف بوجودها في ذلك المكان وهي تتقدم الى البئر . فحصر نظره في الارض من غير أن يلتفت يمنة أو يسرة . وعند ما تكلم كانت كلماته هادئة واطئة كأنه يناجي نفسه .

قال : « لو كنت تعرفين من أنا ، لما كنت تنشدين الماء من هذه البئر . بل كنت تأتين اليّ فأعطيك ماء حيّاً . »

وما فرغ من كلامه حتى وقفت السامرية ، ورغماً عن ارادتها ، وجدت نفسها محمولة الى مخاطبة هذا الغريب برغبة خفية ملكت عواطفها بأسرها . فوضعت جرتها على الارض ونظرت اليه طويلا . وكانت الشمس محرقة في نصف الظهيرة ، وكان التعب قد أخذ منها كل مأخذ لأن البئر كانت بعيدة عن المدينة . ماذا يعني هذا الرجل الغريب بقوله « ماء حيّاً ؟ » بمثل هذا شرعت تناجي نفسها ، وعبثاً حاولت أن تمنع ذاتها عن الكلام فلم تجد الى ذلك سبيلا ، ولذلك أجابته وهي ترتجف لشدة الخوف قائلة :

« ما تقول أيها الرجل ؟ هل أنت تقصد انك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر ؟ وهل لديك وسيلة سحرية تستطيع

أن توفر بها علينا عناء السير في هذه الشمس المحرقة من المدينة الى ههنا ؟ »

ما أشبه هذه الحادثة بالمشاهد الروائية ! فان عبارة واحدة أحرزت النصر لصاحبها ، وأثارت في المرأة رغبة عجيبة في محادثة اليهودي الغريب . ولذلك أفاض في مخاطبتها وشرح ماضي حياتها ورغبات قلبها ومطامحها وآمالها لأنه عرف ان الانسان يرغب بفطرته في الاصغاء الى كل من يحدثه عن نفسه . وعند ما جاء التلاميذ رأوا لشدة دهشتهم مشهداً عجيباً غريباً — امرأة سامرية تصغي بكل انتباه الى تعليم رجل يهودي !

وقد أراد أن يمضي في سبيله فلم تأذن له ، بل ركضت الى المدينة وأحضرت اخوتها وانسباءها قائلة : « هلموا انظروا رجلا قال لي كل ما صنعت . »

فتبعها في الحال جمهور كبير من الرجال والنساء المتعصبين المتصلبين الذين لم يكونوا قبل ساعة واحدة من تلك الحادثة يأذنون لذواتهم بمخاطبة عدو يهودي قط . وعند ما وصلوا الى البئر اصغوا الى كلام يسوع بملء اللذة والشوق .

يقولون ان الزعماء العظام يولدون ولا يصنعون . والقول حقيقي ، فانه ما من رجل يستطيع أن يقنع النـاس بأمر ما ويجعلهم يفعلون ما يريد ، ما لم يكن يحب الناس من صميم قلبه ، ويؤمن بأن ما يريد أن يفعلوه هو لخيرهم ومصلحتهم . وقد كان سر نجاح يسوع في محبته

العظيمة للناس — المحبة التي كان نورها واضحاً في عينيه وبادياً في لهجته ورنة صوته، حتى ان أبسط الناس واكثرهم سذاجة كان يعترف اذ يسمع كلامه انه صديق محب عطوف . . . وقد أحب السامريون كلامه، لانهم آنسوا فيه أخاً محباً ووثقوا بأنه ليس بالعدو المخيف، ولذلك أطال كلامه حتى ان اكثر أبناء المدينة اجتمعوا الى البئر واحداً فواحداً لسماع المعلم. وعند ما دنا وقت العشاء همّ بالرحيل. ولكن الجمهور بأسره صرخ معترضاً وقائلاً، « لا يكون هذا، بل أنت ضيفنا الليلة مع أصدقائك. لاننا نحب أن يراك جيراننا ويسمعوا كلماتك اللطيفة وصوتك الحنون. » وطلبوا اليه بأسرهم أن يقيم عندهم فمكث هناك يومين.

ولم يمر على هذه الحادثة الكثير من الزمن حتى وصل أحد الغرباء تعباً ملولا من عناء الاسفار الى المدينة الحديثة أثينا. وقد جاءها ماشياً لانه كان فقيراً ولم يكن قادراً على دفع أجرة الطريق. وكانت ثيابه ممتلئة بالغبار وكان حذاؤه رثاً بالياً. وقد يخطر للقارىء ان هذه المظاهر وحدها كانت كافية لتعيقه عن النجاح في مدينة كأثينا مشهورة بعلمائها وعظمائها. ولكن الغريب كان متحلياً بصفات أخرى ممتازة واكثر أهمية من هذه. وكان قصير القامة غليظ الجسم ولم يكن منظره جذاباً للقلوب؛ وكان في عينيه حول ظاهر؛ ولم يكن فيه بالاجمال ما يحمل الجمهور على احترامه والمثول أمامه. وقد كان مجيئه الى أعظم مراكز الفلسفة والسفسطة في العالم القديم لحمل الناس

على سماع كلامه أعجوبة من العجائب . وقد كانت الرغبة الواحدة لزعماء تلك المدينة وأساطين مفكريها منحصرة في الاجتماع في ساحات المدينة « ليسمعوا أو يعلنوا حقيقة جديدة . فقد كانوا رواد الافكار الجديدة وقواد الحركة الفكرية في زمانهم ؛ ولم يتوقعوا أن يأتي غريب من أحقر أقطار الارض ليستعيروا منه مخارقه وأوهامه .وكانت لديهم مئات من الديانات المتعددة ، بعضها جديد ، و بعضها قديم ، ولكنها بأسرها معروض عنها لا يعبأ أحد بتعاليمها . ولذلك لم يكونوا في حاجة الى ديانة جديدة .

في مثل هذا المحيط وجد الزائر الغريب المدعو بولس الطرسوسي نفسه في مدينة العلم والعلماء . وكأني بك تتخيله يسير في شوارعها متعثراً بأذياله ليصل الى ساحتها الكبرى . مسكين ماأوفر طموحه، وما أعظم ما سيصيبه من الفشل عند ما يراه الحكماء ؛ انهم ولا شك سيجدون فيه موضوعاً قابلا للهزء والسخرية !

وقد ظل يتابع سيره حتى وصل الى تلة المريخ ، أو زاوية الشارعين « برودواي وسوق الاثنين والاربعين » من المدينة . فاجتمع الناس حواليه مدفوعين بفضولهم ورغبتهم في الاطلاع على حقيقة أمره كما يجتمعون حول بالع السيوف أو العجل ذي الأرجل الثلاثة . وهكذا دنت الساعة الحرجة . فان الغريب يجب أن يقول لهذا الجمهور شيئاً عن زيارته لمدينتهم ، ومهما كان نوع الكلام الذي سيقوله ، فانهم سيستقبلونه هازئين ضاحكين . ولنفرض انه بدأ خطابه

بالطريقة المعتادة قائلا : « أسعد الله صباحكم أيها الاسياد . ان لدي حقائق هامة في شأن ديانة جديدة أود أن أبسطها أمامكم ، فآمل أن تعيروني اصغاءكم دقيقة من الزمان . » فانهم ولا شك كانوا أخرسوا صوته بسخريتهم وقهقهاتهم . . . ديانة جديدة ؟ . . . وماذا تهمهم الديانة الجديدة ، وفي كل زاوية من مدينتهم الف ديانة جديدة وقديمة ؟

ولكن بولس عرف بسيكولوجية الجمهور كل المعرفة ، ولذلك شرع في خطابه هكذا :

« يا رجال أثينا العظيمة ، انني أهنئكم من صميم قلبي بما عندكم من الديانات الكثيرة الصالحة . » فلم يكن في هذا القول أقل تعد على حرمة أديانهم ولذلك استقبلوه فرحين . وتقدموا نحوه اكثر فأكثر راغبين في الاطلاع على تتمة كلامه . « وقد جبت أقطار العالم ولم أجد فيها ما وجدته في مدينتكم من حسن الذوق في انتخاب المبادىء الصحيحة والنظم الصالحة للآداب . وفيما أنا مجتاز بشارع المدينة الاكبر كنت أرى المذابح قائمة لجميع الآلهة والالاهات المتعددة ، فأعجبت بصلاحكم وتقواكم ؛ ولكن ما أظهر لي نبوغكم ووافر حكمتكم بالاكثر انما كان في المذبح الذي رأيته في الساحة الكبرى للاله المجهول .

« ومن غريب التصادف ، أيها الاسياد المحترمون ، ان هذا

الاله الذي تعبدونه وأنتم لا تعرفون اسمه ، هو نفس الاله الذي أعبده وأنا آت اليكم لأ بشركم به . »

هل تستطيع أن ترى صورة ذلك الجمهور أمام عينيك الان ؛ كانوا زنادقة كفرة ولكنهم تواقون الى الجديد ؛ كانوا يريدون أن يحولوا الموضوع بكامله الى اضحوكة يلهون بها ، ولكنهم وجدوا في أعماق قلوبهم عطشاً شديداً لاستماع نهاية الخطاب . وقد عرف بولس بفرط ذكائه كل هذا ، ولذلك وقف هنيهة عن الكلام ، فتعالت الاصوات من الجماهير المزدحمة حواليه تلتمس أن يتابع كلامه . ويظهر من متابعة القصة انه بعد ان فرغ من خطابه « سخر به بعضهم ، وآخرون قالوا له ، سنصغي اليك ثانية في هذه القضية . » ولذلك لم يكن فوزه كاملا كما كان فوز معلمه على بئر يعقوب . ولكن الجمهور الذي خاطبه بولس لم يكن كالجمهور الذي خاطبه يسوع من حيث بساطة القلب ونقاء الفكر ، ولذلك فهو يستحق الثناء الكامل على هذا القدر من النجاح الذي أصابه بين عظماء الاثينائيين . وان لنا من هاتين الحادثتين العظيمتين ، درساً مفيداً يساعدنا على ادراك السر العظيم — كيف أن ديانة تنشأ في مقاطعة محتقرة من بلاد صغيرة ، وتنتشر بملء السرعة في جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك العهد . فهي لم تظفر بنجاحها العظيم لان العالم كان يطلب ديانة جديدة ، ولكنها ظفرت وسادت على العالم بأسره لان يسوع عرف كيف يقدمها للغير المكترثين بالدين بطريقة فتانة تجلب قلوبهم الى سماع

تعاليمها السامية ، وتبعث في نفوسهم روحاً عجيباً لا يلبث أن يقودهم الى طليعة الجيش العامل في خدمتها والاستشهاد في سبيلها . وقد علم طريقته هذه لجميع تلاميذه والمؤمنين به .

ما من رجل ذي رأي صائب وفكر ثاقب ينسبنا الى عدم الاحترام اذا كنا نقول « ان كل المبادىء الاولية في قواعد البيع الحديث » التي يفاخر بها أساطين التجارة اليوم هي بالحقيقة ظاهرة ظهور الشمس في أقوال يسوع وأعماله . وأول هذه المبادىء بل أعظمها هوالضرورة التي تقضي عليك « أن تجاري نجاحك خطوة خطوة . » وقد أوضح أحد عظماء زعماء الاعمال هذا المبدأ بقوله :

اذا رغبت في الصعود الى قاطرة كهربائية وهي في سيرها، فأنت لا تتقدم اليها بشكل زاوية قائمة لتصعد الى داخلها بخطوة واحدة . لانك اذا فعلت ذلك وأنت ولا شك واجد نفسك طريحاً على الارض . كلا ، انك لا تفعل ذلك اذا كنت حكيما مجرباً . ولكنك تركض الى جانبها شيئاً فشيئاً حتى تصبح سرعتك مساوية لسرعتها في الجهة التي تسير القاطرة فيها ، وحينئذ تصعد اليها بسهولة من غير أن تصاب بأقل خطر أو أذية .

« وعقول أرباب الاعمال متحركة كالقاطرات الكهربائية. وهي تشتغل أبداً بأعمال تختلف الاختلاف كله عن العمل الذي تود أن تقدمه لها . وأنت لا تستطيع أن تقفز اليها بخطوة واحدة فيكون لك ما تريد منها . بل يجب أن تضع نفسك في مركز الرجل الذي تخاطبه

أولا ؛ وتبذل جهدك أن تتمه الموضوع الذي يفكر فيه ؛ ثم تشرع في مجاراته في أفكاره ؛ وتبدأ حديثك بما يتفق مع الحالة التي هو فيها . وهكذا تبلغان معاً بأفكاركما الى نقطة واحدة تستطيعان أن تشتركا فيها بما تشاءان من الاعمال من غير أن يحدث لكما ما يزعج أحدكما بتة . فأنت تشجعه شيئاً فشيئاً على القول « نعم » و « نعم » و«هذا حقيقي » و « قد خبرت ذلك بنفسي » الى أن يقول ال « نعم » الاخيرة التي يتوقف عليها نجاحك الحقيقي في عملك . »

وقد علم يسوع هذا كله من غير أن يشير اليه بكلمة قط. ولذلك فان جميع أحاديثه ، وجميع ملامسات فكره مع أفكار الناس ،جديرة بالدرس والتأمل لكل تاجر أو بائع .

كان يسير مرة على شاطيء البحيرة ، فرأى رجلين من الرجال الذين رغبوا في أن يكونوا تلاميذ له . وكانت أفكارهما تسير في مجاريها ؛ وهما يصلحان شباكهما ، ويتحدثان بتجارة السمك ، وبالنجاح الذي سيصيبانه بما يصيدانه في ذلك اليوم . وقد كانت مقاطعة هذين الصيادين في مجرى أفكارهما ومحادثتهما بديانة جديدة ودعوتهما ليكونا مبشرين بمباديء هذه الديانة — كل ذلك وأمثاله من الاقتراحات التي لا دخل لها في عملها كصيادي سمك كان ولا شك يزعجهما ويحملهما على الاعراض عن محدثهما الذي يريد أن يقتل وقتهما الثمين . ولكن كيف دنا يسوع منهما ، وبأية لهجة خاطبهما؟ اسمع ما يقوله الانجيل عن هذه الحادثة :

« وفيما كان يسوع ماشياً على شاطيء بحر الجليل ، رأى أخوين ، وهما سمعان المدعو بطرس ، واندراوس أخوه ، يلقيان شبكة في البحر ، لأنهما كانا صيادين . فقال لهما ، اتبعاني ، فأجعلكما صيادي الناس . »

صيادين . . . . هذه كلمة يستطيعان أن يفهماها . . . . صيادي الناس ... هذه طريقة جديدة للصيد .... ولكن ماذا يعني بها ؟ ... صيادي الناس ؟ . . مهنة جميلة ولا شك . . . اننا سنتقدم عليها فلعلها أفضل من صيد السمك !

وجاس مرة على تلة يطل منها على حقول البلاد الخصيبة .وكان اكثر المجتمعين حواليه من الفلاحين مع زوجاتهم وبنيهم وبناتهم . وكان يود أن يصغوا الى تعليمه ؛ ولذلك كان واجب النجاح يقضي عليه أن يخاطبهم بموضوع لا يبعد عن افهامهم بل يكون قريباً من الاعمال التي عرفوها وألفوها في بساتينهم وحقولهم .

ولذلك بدأ كلامه هكذا : « هوذا الزارع خرج ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط البعض على الطريق فأتت طيور السماء وأكلته .... » فهل أحب الجمع كلامه ؟ كل رجل بينهم عرف ذلك بنفسه . . . فقد طالما سطت الغربان على زروعه وقضت على ثمرات أتعابه وأعراقه .... وها ان هذا المعلم يعرف ما يقاسيه الفلاح المسكين من المشاق في عمله . أليس كذلك أيها الاصحاب ؛ انه بالحقيقة معلم حكيم . . .فهلموا نسمع تتمة كلامه . . . .

ليس أسهل علينا من ايراد الأمثلة الكثيرة لتأييد كلامنا

السابق ففي كل مثل من أمثال يسوع برهان ناصع على معرفته الصحيحة لرغبات الناس التي كان يبني أمثاله عليها . وسنأتي في فصل آخر على الكثير من هذه الامثال — التي هي أقدر الاعلانات التي أذاعها معلم أو زعيم أو رب عمل في العالم لتأييد مبادئه وأفكاره . وفي ما أوردنا من الأمثلة كفاية الآن لتأييد موضوعنا . فهي تظهر السرعة البالغة التي كان يربح بها قلوب سامعيه . فكان يظهر بأول عبارة يتفوه بها انه يجاري الجمهور في سيره ، ويوجه فكره حيث تتجه أفكار الذين يصغون اليه ، وينطق بعباراته ببساطة كاملة حتى ان أبلد الجميع فهماً يستطيع أن يفهمها بملء السهولة ، ويورد كل ذلك بطريقة فتانة تثير في كل الحاضرين الرغبة المتوقدة في الوصول الى النتيجة .

كل بائع ماهر يقدر قيمة المقدرة على الاهتداء الى الاعتراض الذي قد يقدمه السامع على المتكلم وجواب المتكلم عنه مقدماً . وقد عرف يسوع هذه الحقيقة واستثمرها في جميع أقواله وأعماله على الارض . فقد ذهب في احدى الليالي لكي يتعشى في بيت زعيم كبير من زعماء الفريسيين . وكان حضوره في كل بيت يستلفت أنظار الغرباء ، فيقبلون ، وليس في عادات ذلك الزمان ما يمنعهم عن الدخول الى منزل لا يعرفون أهله ، فيدخلون البيت الذي يزوره المعلم ويتمتعون بلذة الاصغاء الى أحاديثه الممتعة ورؤية وجهه المشرق بأنوار الصحة والاخلاص . وفيما كان يسوع يتعشى في بيت الزعيم الفريسي ، دخلت احدى النساء الشقيات البائسات خلسة بين الجمع وخرت ساجدة أمام

المعلم وطفقت تغسل قدميه بطيب جزيل الثمن وتنشفهما بضفائر شعرها الطويل . وقد عرف يسوع الغاية النبيلة التي حملت تلك المرأة التعيسة الى عملها وادرك عظم التعزية التي ستصادفها روحها المنكسرة من تضحيتها البالغة ، ولذلك قبل تقدمتها بوافر الرضى والمسرة رغماً عما أحدثه تصرفها من التأثير السيء في أذهان الحاضرين . وكان يعرف بنوع خاص الافكار التي اختلجت في رأي مضيفه الاناني الطماع .

فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك قال وهو يحدث نفسه ، « لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما حالها اذ هي خاطئة ، ولردها للحال عن ملامسته . »

وقد تكون نفسه سولت له أن يعبر بالالفاظ عن الافكار التي خطرت له في تلك الدقيقة ، ولكن يسوع لم يفسح له فرصة لذلك اذ فاجأه قائلاً :

« يا سمعان عندي شيء أقوله لك . »

فأجابه ، وهو يخفي سخريته ، « قل يا معلم . »

فقال يسوع ، « كان لمداين مديونان . على أحدهما خمس مئة دينار ، وعلى الاخر خمسون . واذا لم يكن لهما ما يوفيان ، سامحهما كليهما . فقل لي أيهما يكون اكثر حباً له ؟ »

فأحس سمعان بأنه واقع في الفخ ، ولذلك أجاب بكل تحفظ قائلا : « هو فيما أظن الذي سامحه بالاكثر . » قال هذا وهو لايدري بما سيجيء بعده .

فقال له يسوع ، « بالصواب حكمت . أترى هذه المرأة ؟ »

فأومأ سمعان بالايجاب ، وهو يتمنى لو لم يفتح المعلم مثل هذه المحـــادثة .

فتابع يسوع حديثه بصراحته المعهودة التي كانت تنفذ الى قلب الحقيقة ، وقال : « أنا دخلت الى بيتك فلم تسكب على رجلي ماء ، وهذه بلت رجلي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . أنت لم تقبلني ، وهذه منذ دخلت لم تكف عن تقبيل قدمي . أنت لم تدهن رأسي بزيت مع وفرة ثروتك ، وهذه دهنت قدمي بالطيب وهي فقيرة شقية . »

فانقبضت ملامح سمعان في الحال . وكاد يذوب خجلاً من نفسه والمعلم يذكره بشحهوتقتيره . وهو لم يدع هذا «النجارالناصري» الا مجاراة لــما كان يفعله غيره من الناس الذين يدعونه الى منازلهم . ولــكنه لم يكن ينتظر قط أن يرى منه ما رآه — بل كان يترقب كما هي العادة أن يسمع منه كلمات الشكر والتسلية لقاء ما قدمهله من الطعام. ولــكن أحلامه لم تتحقق لان يسوع لم يكن من الطبقة التي تستطيع أموال الاغنياء أن تستهويها وتسيرها كيف شاءت !

ساد الصمت على قاعة الطعام ؛ واتجهت جميع الابصار الى المعلم ؛ أما المرأة المسكينة فانها ظلت راكعة على قدمي يسوع تذرف الدموع السخينة متكدرة أن يكون عملها سبباً لــكل هذه المحادثة التي أزعجت رب البيت وخائفة أن يؤول الامر الى توبيخها على عملها. ولــكن يسوع

لم ينظر اليها ، لانه لم يكن قد فرغ من حديثه مع سمعان .

ولذلك قال له أيضاً : « لاجل هذا أقول لك ان هذه المرأة هي كالمديون الذي كان عليه خمس مئة دينار . ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها ، لانها أحبت كثيراً . والذي يغفر له قليل يحب قليلاً . » ثم التفت الى المرأة بنظرة العطف والحنان ، وقال لها :

« مغفورة لك خطاياك . ايمانك خلصك ؛ فامضي بسلام . »

وليس شك في ان هذه الكلمات أنهت المحادثة على العشاء ، لان أقوى الحضور حجة وأنصعهم برهاناً ، وجد نفسه معقول اللسان أمام المعلم الذي كان قادراً على قراءة أفكاره في أعمق أعماق قلبه .

وقد طالما قهر يسوع خصومه في مواقف عديدة بسؤال واحد — هو عند التحقيق أبلغ وسائل الاقناع في المجادلات العمومية ولكن الناس يعرضون عنه خاسرين . فكم من مرة يستطيع الانسان أن ينقذ نفسه من العناء الكثير الذي يصادفه في مجادلة المماحكين برد الحمل الذي ينوون طرحه على كتفيه الى اكتافهم . لم يجادل يسوع في معاملاته مع الناس الا في الظروف النادرة . ولكنه كان يخرس مجربيه بسؤالات بسيطة يجب أن تكون لنا درساً نافعاً في جميع أعمالنا مع الناس . وها نحن نورد بما يأتي مثالين من هذا القبيل .

أقام له الفريسيون مرة فخاً يصطادونه فيه . فقد حملوا في أحد أيام السبت رجلا يده يابسة وجاؤوا الى الهيكل حيثما كان يسوع يقضي وقته في يوم السبت . ووضعوه أمام المعلم يترقبون أن يشفيه

فيكسر بذلك شريعة اليهود القاضية بعدم العمل في يوم الرب ويكون لهم من عمله هذا حجة لاضطهاده في الوقت الملائم . وقد أدرك يسوع سوء نواياهم ولكنه لم يعبأ بما نصبوه له من الشرك لانه عرف كيف يرد كيدهم الى نحورهم .

ولذلك قال للرجل الفقير ، « قم الى الوسط . »

فاجتمع زعماء الشريعة للحال حواليه . حاسبين ان الاخدوعة التي أعملوا الفكر في تدبيرها قد جازت عليه وأوشك أن يقع في شركهم . أما يسوع فنظر اليهم والنور يفيض من عينيه وأمائر الغضب الشديد بادية على وجهه وسألهم قائلاً :

« أخير يحل أن يفعل في السبت أم شر ؟ أن تخلص نفس أم تهلك ؟ »

وعبثاً ترقب جوابهم فلم يجيبوا بكلمة قط لانهم ماذا كانوا يقدرون أن يقولوا ؟ فاذا أجابوا ان الشريعة تمنع عمل الخير فان الناس يرددون قولهم في كل المدينة . والجمع الذي كان يتبعه من عامة الناس كان يحبه وينفر من استبداد الرؤساء — ولذلك كان يسره أن ينشر مثل هذا التصريح من الفريسيين ليزعزع ثقة الناس بكلامهم . وفوق هذا فلم يكف الفريسيون جهالاً ليتفوهوا بمثل هذا الجواب ولذلك « صمتوا » وانصرفوا في طريقهم .

وفي يوم آخر أظهر لتلاميذه أنفسهم كيف يقدر أن يجمع في سؤال صغير فلسفة كبيرة . فان التلاميذ لم يكونوا خالين من الضعف

الذي يستولي على طبائع البشر . ولذلك كانوا يعنون بصغيرات الامور — ويجادلون بعضهم بعضاً في من سيكون الاول والمتقدم بينهم، وكيف سينظر العالم الى أحكامهم متى جلسوا على كراسيهم في الملكوت الذي كانوا يطمحون اليه .

وقد قضى على جميع رغباتهم بسؤال واحد عند ما قال لهم :

« ومن منكم اذا هم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ فاذا كنتم لا تقدرون أن تفعلوا هذا الامر الصغير ، فلماذا تعنون بغيره من الامور الكبيرة ؟ فلهذا أقول لكم ، لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون، ولا لاجسادكم بما تلبسون . أليست النفس أفضل من الطعام؟ والجسد أفضل من اللباس ؛ انظروا الى طيور السماء ؛ فانها لا تزرع ، ولا تحصد ، ولا تخزن في الاهراء ؛ وأبوكم السماوي يقوتها . أفلستم أنتم في عينيه أفضل من طيور السماء ؟ »

ما أصغر ما ظهرت اهتماماتهم امام عيونهم بعد ان سمعوا مثل هذا السؤال !

اجل ، كان يسوع السيد المطاع النافذ الكلمة في كل موقف من مواقفه سحابة الثلاث سنوات التي قضاها في الخدمة العمومية على الارض . فقد كان مستعداً للجواب عن كل سؤال يوجه اليه — في ساحات المدينة ، وفي الهيكل وعلى الشوارع والاسواق — وكانت جواباته سديدة وحججه راهنة ، ولذلك خرجت شهرته بين الخاصة والعامة وكان الناس يختلفون اليه من جميع انحاء البلاد لمطارحته الكلام

ومجاذبته أطراف الحديث . وقد طالما جرب الفريسيون والكتبة والمتشرعون ان يمسكوه بكلمة واحدة فخابت آمالهم وذهبت اتعابهم ادراج الرياح . ولذلك جاء اليه رؤساء الكهنة اخيراً بعد ان وجدوا ان جميع علماء الامة باؤوا بالفشل والخسران معه. فقد خيل اليهم انهم كرؤساء الامة العظماء وعلمائها المجربين يستطيعون بمجرد حضورهم ان يخرسوا هذا الاحمق المتمرد على سلطانهم والثائر على شرائعهم وقوانينهم .

ولما أتى الى الهيكل دنا اليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلم وسألوه قائلين ، « بأي سلطان تفعل هذا ، ومن الذي اعطاك هذا السلطان ؟ »

وكانوا يعتقدون انه سيقف حائراً أمام هذا السؤال الدقيق . ولكنه اجابهم على الفور قائلاً : « وانا اسألكم كلمة واحدة ، فان قلتموها لي قلت لكم أنا أيضاً بأي سلطان أفعل هذا . معمودية يوحنا من أين كانت ، من السماء أم من الناس ؟ أجيبوا اذا كنتم تعرفون . »

فضاقت انفاسهم في صدورهم . ودنوا بعضهم من بعض يتهامسون ويسأل واحدهم الاخر عن القضية . بماذا يجيبون ؟ فأن قلنا أن معمودية يوحنا من السماء ، يقول لنا ، « ولماذا لا تؤمنون به ؟ » وان قلنا من الناس ، فان هذا الجمع الاحمق يمزقنا لانه يعتقد بجماعه ان يوحنا نبي عظيم . فماذا نفعل ؟ الافضل أن نقول له لا نعرف ،

وننصرف من هذا المكان بأقصى ما يمكن من السرعة .

فأجابوا يسوع وقالوا ، « لا نعلم . »

فقال لهم ، « حسناً فعلتم . أنتم لا تجيبون عن سؤالي . ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا أو من الذي أعطاني هذا السلطان . »

نصر مبين بالحقيقة ، هتف له الجمهور بأسره . أما رؤساء الكهنة والشيوخ فانهم انصرفوا للحال من حضرته يتفترون بأذيال الخيبة والعداء .

انك تشعر وأنت تقرأ قصة المعلم الاكبر ان الواجب كان يقضي على كل ذي عقل سليم من الحكماء أن يدعوه وشأنه . لأن الطفل الصغير نفسه اذا حرق أصابعه بالنار يعرف جيداً أن يتجنب النار سحابة حياته . ولكن حسدهم وغضبهم كانا يدفعانهم الى تجربته المرة بعد المرة ؛ وفي كل مرة كانوا يصادفون عاراً جديداً شراً من المرة السابقة . ففي الاسبوع الاخير نفسه جمع « الفريسيون والهيردوسيون » جمهوراً من أذكياء العامة وخبثائها الذين لم يكن لهم عمل سوى السخرية والهزء من الناس وأرسلوه اليه واثقين بأن من كان مثله ابناً لمزرعة حقيرة ولم يسبق له ان طلب العلم على أحد من المعلمين لا يستطيع أن يثبت دقيقة أمام هؤلاء الافذاذ من فطاحل العلماء . وهذه أفضل الفرص لاصطياده في فخاخهم .

وعند ما وصلوا اليه قالوا له ، « يا معلم ، قد علمنا انك محق ،

وتعلم طريق الله بالحق ، ولا تبالي بأحد من ذوي السلطان ، ولا تنظر الى وجوه الناس بل تعامل الجميع بالسوية وتنطق بما في فكرك بصراحة وحرية لانك تستمد أفكارك من الله . فقل لنا ماذا تظن هل يجوز أن تعطى الجزية لقيصر أم لا ؟ »

انهم بالحقيقة متشرعون فقهاء . فاذا أجاب كرجل يهودي يغار على حرية بلاده وأمجاد أجداده ان دفع الجزية غير حق ، فان جوابه ولا شك كان يدون في سجلات هيرودس ، ويقبض عليه في الحال كمشاغب يثير الفتنة في الشعب ضد العرش الروماني . واذا أجاب ان الجزية واجبة فانه يخسر ثقة الشعب به ومحبته له لان الشعب كان يتذمر من الجزية ويمقتها كأنها نار الجحيم . سؤال صعب بالحقيقة . . .

فعلم يسوع شرهم ، ونظر اليهم باحتقار قائلاً كأنه يناجي نفسه في سره ، « تباً لكم ما أحمقكم ! وهل تظنون اني جاهل لهذه الدرجة؟»

ثم قال لهم ، « أروني نقد الجزية ؟ » فقدم له أحد الحضور المتشوقين لوقوعه في فخهم ديناراً . فوضعه يسوع على يده بحيث يراه الجميع . وقال لهم :

« لمن هذه الصورة ؟ ولمن هذه الكتابة ؟ »

وعند ما سمعوا هذا السؤال وقع الرعب في قلوبهم . فأدرك الاذكياء فيهم ان الفخ الذي نصبوه له قادهم اليه ولم يكن لهم مهرب منه لانهم كانوا مضطرين الى الجواب . فقالوا لقيصر . »

فقال لهم متهكماً وهازئاً بهم : «جميل جداً . أوفوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . »

صفعة جديدة على وجوه الرؤساء في المدينة العظيمة .... وفرصة جديدة لضحك الشعب وسخريته . . . وقصة جديدة يتحدث بها الناس في الحانات وساحات الهيكل وأسواق المدينة ... ومما جاء في الانجيل وصفاً لخيبة المجربين ، ان الجموع حيثما اجتمعت كانت تظهر اعجابها الكامل بأقواله وأعماله . » . . . وجاء في موضع آخر « ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله سؤالا قط . » لان كل حفرة احتفرت له لم يقع فيها الا الذين حفروها . وكل فخ نصب له لم يصد الا الذين نصبوه . ولذلك لم تبق أمامهم سوى وسيلة واحدة لاخراس صوته وهي الدليل الواضح على فشلهم وعارهم . فقد أثاروا عليه الرعاع والسفلة ، لانهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمامه ويسمعوا كلامه ولكنهم استطاعوا بقوة الاوغاد من أبناء الشر والمعصية أن يسمروا جسده على الصليب .

غير انهم أبطأوا في عملهم . لانه فرغ من جميع أعماله في تعليم تلاميذه قبل أن قبضوا عليه وساقوه الى الجلجثة . وقد كان موته قوة عظيمة تضاعفت بها جهود تلاميذه وأتباعه في نشر مبادئه وتعاليمه . . . .

يعقد أبناء هذه البلاد الاميركية في كل سنة مئات المجتمعات الادبية والخيرية والسياسية والتجارية وغيرها . بيد ان اكثرها تبذير

في الجهود والنقود بدون كبير جدوى . فهي تلتئم على أساس النظرية الفاسدة القائلة بأن المبالغة في الاعلان والترغيب في المبادىء قوات عاملة في النجاح — وان الانسان يقدم بكلية قلبه على تصديق الوعود بالنصر الهين والحصول على النتائج الكثيرة بدون الجهد الشاق . ولكن عظماء الزعماء في العالم لم يصدقوا بهذه النظرية لانهم عرفوا ما هو أفضل منها .

خذ جدعون مثلاً . فانه عند ما دعا الناس لمحاربة المديانيين لبى دعوته اثنان وثلاثون الفاً من الرجال . فنظر جدعون الى صفوفهم نظرة الناقد البصير . وأدرك للحال الرغبات المتضاربة التي حملتهم الى التطوع تحت قيادته — فهنالك الذين جاؤوا لمجرد الرغبة في المغامرة ؛ وهنالك الذين لبوا الدعوة لخوفهم أن يقال عنهم انهم جبناء ؛ وغيرهم طمعاً في الاسلاب والغنائم ؛ وغيرهم ليتخلصوا من زوجاتهم ! ولذلك عزم عزماً اكيداً أن يغربلهم ويختار لنفسه الجيد منهم ولذلك قال لهم :

« من كان خائفاً مرتعداً فليرجع وينصرف الى بيته الليلة . »

فرجع من الشعب في تلك الليلة اثنان وعشرون الفاً وبقي معه عشرة آلاف .

ولكن جدعون لم يكتف بهذا بل أراد أن يبالغ في تجربة الباقين ليختار أفضلهم رجالا له . فأنزل الشعب في حر النهار من أعلى الجبل الى نهر صغير في الوادي . وكان التعب أخذ مأخذه من الرجال والعطش يحرق قلوبهم . فوقف جدعون على حافة النهر يراقبهم قائلا

في نفسه ان الحاجة محك الرجال. وما وصل الجيش الى الماء حتى ركع اكثرهم على ركبهم وطفقوا يكفون الماء بألسنتهم من النهر كما تلغ الكلاب وهم يكادون لا يرتوون لشدة عطشهم . ولكن ثلاث مئة رجل منهم كانوا شديدي الرغبة في السير الى الحرب ولذلك لم يركعوا على الارض بل ولغ كل منهم في الماء من راحته الى فمه ورش وجهه بالماء وسار في الحال الى الجانب الآخر من النهر وهو يعد الدقائق للهجوم على العدو !

ثلاث مائة رجل لا غير من الاثنين والثلاثين الف رجل برهنوا على رجولتهم الحق عند الامتحان . فأخذهم جدعون وصرف كل واحد من الباقين الى خيمته . لانه عرف ان الذهاب الى الحرب بثلاث مئة رجل يثبتون في المواقع ثبات الرجال الصناديد خير من الذهاب باثنين وثلاثين الف رجل يسيرون الى الهيجاء بقلوب واجفة ونفوس مرتعدة !

وقد ربح الحرب وقهر المديتيين برجاله الثلاث مئة .

هذه هي الزعامة الحقيقية التي تظهر أفضل ما في عزائم الرجال يبسط الصعوبات والعقبات التي سيصادفونها أمامهم عوضاً عن تصوير الاسلاب والغنائم — وهي بعينها الزعامة التي عمل بها يسوع . وقد حول بها طبيعة تلاميذه اللينة كالعجين الى فولاذ قاس . وكل من يقرأ وصاياه الاخيرة التي أراد أن يثير بها ما كمن في صدور تلاميذه من الشجاعة وصادق العزيمة يقف أمامه وقفة الاعجاب والارتعاد .

أصغ جيداً الى هذه الايضاحات الهادئة التي قدمها لتلاميذه مصوراً لهم الاخطار والاضطهادات التي ستقوم أمامهم — قال :

« لا تقتنوا ذهباً ، ولا فضة ، ولا نحاساً في مناطقكم .

« ولا مزوداً للطريق ؛ ولا ثوبين ، ولا حذاء ولا عصاً .

« ها أنا مرسلكم مثل خرفان بين ذئاب .

« احذروا من النـاس ؛ فانهم سيسلمونكم الى المحاكم ، وفي محافلهم يجلدونكم ويقودونكم الى الولاة والملوك من أجلي شهادة لهم وللامم .

« من أحب أباً أو أماً اكثر مني فلن يستحقني . ومن أحب ابناً أو بنتاً اكثر مني فلن يستحقني . ومن لا يحمل صليبه و يتبعني فلن يستحقني .

« من وجد نفسه يهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها . »

تأمل في الوجوه والقامات . انظر الى الاكتاف وهي تضيق والى الشفاه وهي تتقلص . ان في تلك الوجوه الكالحة قوة عجيبة دان لها العالم بأسره — قوة ولدت من هذه الوصايا الحديدية التي لم يسمع بمثلها الانسان قبل يسوع . قد أخرس الرؤساء صوت الزعيم الاكبر الذي نطق بهذه الوصايا ، ولكن القوة التي حملتها كلماته عاشت في العالم الى الأبد . وقد ثبتت راسخة في السجون ، وامام الجلد ، ومخاوف الغرق في البحر ، واضطهاد الجماهير ، وخسارة

الاصدقاء ، وثقل القيود ، وزئير الاسود ولهيب النيران المشتعلة . وقد سبق يعقوب اخوته في الموت من أجل معلمه . لان هيرودس أغريبا قتله . أما أخوه يوحنا ، فبعد ان قضى الاعوام الطوال منفياً في جزيرة بطمس ، استشهد أخيراً بأفظع الميتات وأهولها . وقد مات اندراوس على الصليب الذي ما برح يحمل اسمه حتى اليوم . وألح سمعان بطرس على صالبيه أن يصلبوه ورأسه الى أسفل الصليب لانه لم يحسب نفسه أهلا أن يموت كما مات سيده . وقطع نيرون رأس بولس فأخرس صوته ؛ ولكن روح بولس الذي قال « نحن في جميع الامور أعظم من غالبين » شرعت في سيادتها الحقيقية في تلك الساعة .

ولم ينقض الوقت الطويل على موت المعلم الصالح حتى استشهد كل أعضاء الجمعية التي أسسها على الارض واحداً فواحداً ، ولكن « دم الشهداء كان بذاراً صالحاً للكنيسة » ؛ لان طريقة المعلم في تعليم تلاميذه ونشر مبادئه الخالدة نالت فوزها اللائق بها في سائر أنحاء العالم .

الفصل الرابع

اعلاناته

كان يسوع قادراً — كما نقول بلغة اليوم — على الظهور بكل مظهر ، ولذلك فان كل انسان يرى فيه المظهر الذي يتعشقه أكثر من سواه .

فالطبيب يفكر بالنطاسي العظيم (يسوع) الذي لم تفشل ملامساته البسيطة في شفاء المرضى ، وقد تقدم بطريقته العجيبة فسبق العلم الحديث في معرفته للعلاقة الخفية الكائنة بين الروح والصحة والواعظ يدرس العظة على الجبل فيقف منذهلا امام ما فيها من الحقائق الخالدة التي تعبر عنها كلمات بسيطة واضحة . والثائر المتمرد لا يذكر من حياة يسوع سوى توبيخه للاغنياء والرؤساء؛ والاشتراكي يفاخر بيسوع لان تلاميذه حملوا صندوقاً عموميا وعاشوا معيشة اشتراكية . والمتشرعون يبالغون في اطراء اجوبته السديدة في محاكمته ؛ والناقدون الخبيرون على ممر الاجيال قد اعترفوا له بالسيادة في ميدان النقد والغربلة .

على انني لست بالطبيب ولا بالواعظ ، ولا أنا ثائر ولا اشتراكي ولا متشرع ولا ناقد خبير . بل انا اتعاطى كتابة الاعلانات حرفة لي.

وكتابة الاعلانات كهنة خاصة حديثة العهد في العالم ؛ ولكنها كقوة عاملة في الحياة قديمة جداً . فان الكلمات الاولى التي نطق بها الخالق في بدء الخليقة اذ قال: « ليكن نورٌ ، فكان نورٌ ، » هي دستور هذه المهنة . كل مافي الطبيعة يعلن نفسه بطريقته الخاصة . ان ريش الطائر البراق هو اعلان في الالوان موجه الى عواطف العصفورة . والنباتات لا تجهز ذواتها بالازهار لمجرد الزينة فحسب ، بل هي تفعل ذلك لتستهوى النحلة فتنغط عليها وتحمل اللبن منها على جناحيها فتنقله الى غيرها وهكذا تستطيع النباتات أن تحفظ بنوعها .

(السماوات تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر باعمال يديه . »

قال احد الحكماء ، « ما من فلكي يستطيع ان ينكر وجود الله . » وكأنه اراد أن يقول ، انه ما من رجل ينظر الى أول اعلان كهربائي في الوجود — القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم المتلألئة في ظلمة الليل — ويستطيع أن يفكر الحقيقة التي يعلنها هذا الاعلان : « أن هنالك خالقاً حكيما صنع كل هذا . » ولذلك اقدم للقارىء الاديب في هذا الفصل اعلانات يسوع التي عاشت في العالم عشرين قرناً وهي ما برحت اعظم القوات العاملة في الوجود .

فلنسأل ذواتنا قبل كل شيء لماذا كان يسوع ناجحاً في استلفات انتباه الناس الى تعاليمه ، ولماذا تفشل كنيسته في هذا العمل الذي نجح هو فيه ؛ الجواب عن هذا السؤال على نوعين . فقد

ادرك اولاً المبدأ الاساسي القائل بان كل الاعلانات الصحيحة هي اخبار صادقة يقبل الناس على مطالعتها بلذة وشوق . ولذلك لم يعبأ بالتافهات او الصغيرات من اعمال الحياة ، بل حصر كل اهتمامه بالجذور الاساسية لشجرة الحياة . ولو كان في ايامه ما في هذه الايام من الصحف السيارة ، لما اقدم محرر جريدة قط على كتابة عبارة كهذه : « ليس ثمت من حاجة الى زيارته اليوم ؛ فانه سيقوم بنفس العمل الذي قام به في الاحد الماضي ! » بل كان مراسلوا الصحف يرافقونه حيثما سار في كل ساعة من حياته ، لانه لم يكن من الممكن لبشري على الارض ان يتنبأ بما كان سيقوله او يفعله لان كل حركة من حركاته او كلمة من كلماته كانت خبراً جديداً للعالم .

ولاجل تأييد هذا القول تقدم على سبيل المثل حوادث يوم واحد من ايامه . ان ترجماته في البشائر الاربع ليست تاريخاً لكل يوم من ايام حياته ، بل هي مجموعة المعلومات الشخصية التي حفظها الانجيليون ودونوها بعد موته كما بقيت آثارها راسخة في ذاكرة كل منهم ، لان يسوع لم يدون مفكراته بيده . ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقول ان هذه الحادثة قد وقعت في اليوم الفلاني من حياته في السنة الفلانية . فان هناك كثيراً من الحوادث التي يذكرها الكاتب الواحد ويهملها الاخر وغيرها مما يتفق الجميع على تدوينها وغيرها مما يوردها كل منهم بطريقته الخاصة التي تختلف عن طريقة

رفقائه . وقد اورد لنا متى الانجيلي في الفصل التاسع من بشارته حوادث متصلة لعمل يوم واحد . وفي جملة هذه الحوادث دعوة متى نفسه الى التلمذة ، ومن هذا نستدل ان رواية الكاتب لحوادث ذلك اليوم الاول من وجوده مع المعلم قد جمعت على الاقل كل الحوادث المهمة التي وقعت في ذلك اليوم. لذلك فاننظر الى برنامج العمل في الاربعة والعشرين ساعة من كل يوم من ايام المعلم ، ونرى كيف تظهر في صفحة الاخبار الاولى

العمل يبدأ عند شروق الشمس لان يسوع كان يبكر في النهوض من النوم ؛ فقد عرف ان ابسط طريقة للحياة اكثر من المعدل العمومي تقوم باضافة ساعة الى نهاية كل يوم من ساعات الفجر لذلك ، نجد عند شروق الشمس سفينة صغيرة تخلف شاطيء البحيرة وراءها وتسير فوق الامواج . وكانت تقل يسوع وتلاميذه في طريقهم الى كفرناحوم وهي المدينة التي احبها بهذا المقدار حتى اطلق عليها لقب « مدينته » وما رست بهم السفينة على الشاطيء حتى سار المعلم رأساً الى منزل أحد الاصدقاء ، ولكن لم يلبث هنالك طويلا حتى عرف ابناء المدينة بوجوده بينهم في الحال. لان الاخبار انتشرت بسرعة أنه في المدينة ، ولذلك ما كاد يفرغ من طعام الصباح حتى اجتمع الناس حول الباب — و بينهم مخلع فقير ملقى على سرير .

وهكذا بدا عمل النهار .

ولما كان يسوع قد نام ليله الماضي في الهواء الطليق لذلك كان

على أتم الاستعداد لاستقبال عمل يومه باعصاب هادئة . فجاء في الحال الى حيث كان المخلع المسكين ونظر اليه والابتسامة الجميلة تزين ثغره وتبعث الامل والحياة في اشقى البؤساء

واذ رأى ايمان المريض والجمع المحتشد حواليه قال له ، « تق يابني مغفورة لك خطاياك . »

مغفورة لك خطاياك ! عبارة كبيرة على الانسان ! ولذلك قال قوم من الوجهاء بين الجمع اذ سمعوها ، » أن هذا الرجل يجدف ! لانه من خوّله الحق ليغتصب الله سبحانه وتعالى سلطانه ؟ من اين حصل على هذه السلطة ليحكم في الخطايا التي تستحق المغفرة ؟ »

فعلم يسوع افكارهم من غير أن يسمع اعتراضهم . ومع انه لم ينزل نفسه الى ميدان المناظرة والمجادلة قط فانه لم يكن ينسحب منه اذا انزاله اليه آخر، وقد نال أكثر شهرته من انتصاراته في مثل هذه المواقف . قد طالما انتخب الناس للمراكز الكبيرة — بل وللرئاسة على حكوماتهم — بصلاح طبائعهم وعدم السعي لمخاصمة انسان على الارض . ولكن زعماء الانسانية وقادة الفكر الذين ما برح العالم يذكرهم بالمديح والاطراء كانوا معرضين سحابة حياتهم لسهام النقد الحادة من خصومهم ولكنهم كانوا يستقبلونها بقلوب لا تهاب الموت ويردونها الى اصحابها مغموسة بدماء الفشل والانكسار .

ولذلك نظر يسوع الى المعارضين وقال لهم ، « ما هو

أعتراضكم ايها الاصحاب ؟ ولماذا تقفون هنالك مفكرين بالشر في قلوبكم ؟ ما الايسر أن يقال ، مغفورة لك خطاياك ، أم أن يقال قم فامش ؟ ان النتيجة واحدة في الحالتين . » ولكي تعلموا أن ابن البشر له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا اجاريكم فيما تريدون الان . حينئذ قال للمخلع ، « قم ، احمل سريرك واذهب الى بيتك . »

أما المخلع فشعر للحال بقوة عجيبة تجرى مع دمه في مفاصله ، فقام ببطء وهو يكاد لا يصدق انه عاد صحيح الجسم ، ومضى الى بيته فرحاً يحيط به الاهل والخلان من كل جهة . ومع ان المعترضين نالوا جوابهم المفحم ، فانهم لم يتحولوا عن مجادلة المعلم حتى علا الضجيج وانتشر السجس بين الجمع فهربوا خوفاً من انتقام الشعب . وهكذا انتهى الاجتماع .

هل تستطيع ان تتصور كيف كانت تصدر جرائد كفرناحوم المسائية في ذلك اليوم — لو كان في المدينة جرائد كجرائد اليوم ؟ انها ولا شك كانت تظهر كما يأتي :

مخلع يتعافى

يسوع الناصري يدعي ان له سلطانا ان يغفر الخطايا

زعماء الكتبة يعترضون

الوجهاء يسمونه « مجدفاً »

ولكن المخلع لم يعبأ بكل ذلك بل مضى وهو يقول

« ماذا يهمني فأنا قادر ان أمشي ! »

هذه اول حوادث اليوم الواحد وهي مستحقة ان تنشر في صدر الصحيفة .

وكان بين الجمهور الذي شهد هذه الحادثة ودهش تجاه قوة المعلم الناصري عشار اسمه متى . ولما كان رجل عمل فأنه لم يتمكن ان ينتظر انتهاء المجادلة بل انصرف في الحال الى عمله عند مائدة الجباية وبعد الفراغ من مجادلة الكتبة مر يسوع بالمكان الذى كان العشار جالساً فيه فقال له :

« يا متى اريد ان تتبعني »

فقام وتبعه . كلمة واحدة . بدون اقل جدال للاقناع او وعد للتشويق . « يامتى — اتبعني » فيتبعه العشار الغني في الحال، ويعرض عن عمله وأرباحه ، ويعد له وليمة عظيمة يدعو اليها الاهل والاصدقاء معلناً للجميع صيرورته تلميذاً للمعلم .

* * *

عشار وجيه في المدينة ينضم

الى قوات الناصري

متى يهجر عمله ليشارك

الجمعيه الجديدة في نشر مبادئها

* * *

وليمة عظيمة في بيت متى

حادثة ثانية في اليوم الواحد — تستحق النشر في الصفحة الاولى

وكانت الوليمة نفسها حادثة ثالثة من حوادث اليوم العجيبة. فانها لم تكن على نمط الولائم التي يدعى اليها المعلمون الدينيون . بل كانت طافحة بوسائل التسلية والانشراح .

ولم يكن ثمت من شرط لتحديد الدخول اليها بالحدود اللاهوتيه. ولم يقف على باب البيت احد يسائل المدعوين : « ما هي عقيدتكم في ولادة يسوع ؟ » أو « هل تنصرتم ام لا ؟ » بل كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها ، وكان يجلس مع المعلم وتلاميذه الى المائدة كثيرون من العشارين والخطاة

ولما نظر الفريسيون ان يسوع يؤاكل العشارين والخطاة ، تذمروا فيما بينهم قائلين : « لو كان هذا المعلم على شيء من الدين أو الادب فانه ما كان يقبل أن يأكل مع أمثال هؤلاء ! »

ولكن الامر الذي ارتعدت لاجله فرائص الفريسيين لم لم يزعج يسوع قط . فان محبته للناس كانت تفوق جميع الحدود الاجتماعية ، ولذلك لم يكن يعتقد ان بعض الناس افاضل وبعضهم غير افاضل بل كان يعتقد ان لكل إنسان فضيلته الخاصة به وهي تترقب فرصة للظهور في كل لحظة من حياته . وقد تفوق يسوع باظهار فضائل الناس على جميع المعلمين الذين نبغوا في العالم .

ولذلك التفت الى الفريسيين وقال لهم ، « ما بالكم تتذمرون فيما بينكم ، أليس من حد تنتهي عنده شكاوا كم ضد مؤاكلتي لهؤلاء الخارجين عن جمعياتكم وطبقاتكم ؟ من يحتاج الى الطبيب بالاكثر — الاصحاء أم ذوو الاسقام ؟

ثم زاد على ذلك قوله : « انتم تبالغون في تعظيم اهمية الطقوس والرسوم والفرائض الخارجية — ولكن هل يخطر لكم ان الله يطلب كل هذا ؟ او ماذا تعتقدون انه عني بقوله « اريد رحمة لا ذبيحة » ؟ خذوا هذه الحقيقة الى منازلكم واشتغلوا بدرسها في خلواتكم . »

* * *

يدافع عن العشارين والخطاة

* * *

يسوع الناصري يرحب بهم على الغداء .

* * *

يوبخ زعماء الفريسيين

* * *

يصرح ان العقائد والطقوس الناموسية غير مهمة
لان « الله يريد رحمة لا ذبيحة . »

هذه حادثة رابعة تستحق النشر في الصفحة الاولى من الجريدة . وليس شك في أن الذين سمعوا كلمات المعلم حملوها في

الحال الى معارفهم وأصدقائهم وجيرانهم فانتشرت في جميع أنحاء المدينة وكانت موضوعاً لاحاديث الجماهير في منازلهم وفي مجتمعاتهم العمومية .

وعند انتهاء الوليمة حدثت حادثة تفتت الاكباد — وخلاصتها ان رئيساً حزيناً تقدم الى يسوع وعلامات الكآبة العميقة مرتسمة على أسارير وجهه . فقد وقف في ذلك الصباح حزيناً أمام سرير ابنته المحتضرة وهي تودعه بكلماتها الاخيرة ممسكة بيديه ومرتعشة أمام عاصفة الموت الهوجاء التي كانت على وشك الذهاب بها الى هاوية القبر . ولكن الاطباء أخبروه أخيراً ان ابنته مائتة في الحال ولا سبيل الى الرجاء بشفائها . ولذلك جاء هذا الرئيس الكبير الى المعلم الشاب الذي خرجت شهرته في جميع أنحاء البلاد انه « يشفي كل مرض واسترخاء في الشعب »

ومع ان الرئيس كان يعتقد انه جاء متأخراً ، فانه لم يدخل الباب ويجد نفسه في حضرة يسوع حتى انتعشت آماله الميتة ونظر الى المعلم مستعطفاً وقائلاً :

« يا معلم ، ان ابنتي تموت في هذه الساعة . ولكن هلم فضع يدك عليها فتحيا . »

فنهض يسوع من مقعده ،محمولاً بذلك الايمان الثابت الذي ظهر بكلمات الرئيس المصدوع القلب ، وسار من غير تردد أو سؤال الى

الباب . فقد كان سحابة حياته يعتقد بأنه ليس من حد لما يستطيع أن يعمله على شرط أن يكون الطالب مؤمناً . فأخذ بذراع الرئيس وسار واياه في الشارع والتلاميذ والجموع يتبعونهما في طريقهما الى بيت الصبية المحتضرة .

وكانت الطريق بعيدة ، وقبل أن يصلوا الى البيت حدثت لهم حادثة أخرى .

فان امرأة بها نزف دم منذ اثنتي عشرة سنة ، اندست بين الجمع المزدحم حول المعلم ، ودنت رغماً عن اعتراضات التلاميذ ومست طرف ثوبه . « لانها قالت في نفسها ان مسست ثوبه فقط برئت. »... ما أعظم هذا الايمان ! . . . وما أعظم الشخصية التي كانت تبعث في الجماهير مثل هذا الايمان ! . . . « ان ابنتي قد ماتت ، ولكن هلم فضع يدك عليها فتحيا ! » ... « انني امرأة مريضة منذ اثنتي عشرة سنة ؛ وقد أنفقت أموالي على الاطباء فلم تنجع فيّ عقاقيرهم ؛ ولكن اذا مسست طرف ثوبه فقط برئت ! » . . . كيف استطاع الفنانون من المصورين أن يتصوروا ان ضعيفاً حزيناً يقدر أن يوحي مثل هذا الايمان في قلوب الناس ؟ !

وقد فازت المرأة بما أرادت . فقد تغلب ايمانها على مرضها بتلك الملامسة البسيطة ، وبما رأته على وجه يسوع من ابتسامة الرضى وبالكلمات القليلة التي خاطبها بها . « فقد برئت منذ تلك الساعة.»

حدث كل هذا والمعلم يتابع سيره الى بيت الرئيس والجمع يزحمه.

وعنـــد ما أطلوا على البيت ، كان الزمارون والنادبون المستأجرون يقومون بوظيفتهم على أبواب المنزل . فبالغوا في الندب والتزمير اذ رأوا والد الميتة ليجزل في عطائهم . فأسرع يسوع نحوهم وقال لهم بلهجة السيد المطاع ، « تنحوا ، ان الصبية لم تمت ولـكنها نائمة . »

فضحكوا منه ساخرين به . ولكنه أخرجهم من المنزل وسار توًا الى غرفة الجارية وأمسك بيدها . فنظر الجمع بأسره مذهلين مما رأوا لان الصبية نهضت في الحال من هجعتها .

حادثتان جديدتان — خامسة وسادسة — في اليوم الواحد ، تستحقان النشر في صدر الصحف اليومية . امرأة بها نزف دم منذ اثنتي عشرة سنة تبرأ بملامستها طرف ثوب الناصري ! صبية تموت بين أيدي الأطباء فيعلنون موتها ثم يأتي المعلم فيمسك يدها فتقوم من موتها حية صحيحة ! فلا عجب أن نرى ألوف الألسنة في تلك الليلة تعلن اسمه وعجائب أعماله . ولذلك « ذاع هذا الخبر في تلك الارض كلها . » لانه لم يكن في العالم قوة تستطيع أن تحول دون نشر مثل هذه الاعمال العجيبة التي يتعشق الشعب سماعها .

فقد كانت خدمته تعلنه دون عظاته ؛ وهذه حقيقة ثانية تستحق النظر والتأمل في حياته . فانك لا تستطيع البتة أن ترى في الانجيل مثل هذا الاعلان :

— سيلقي يسوع الناصري في هذا المساء
عظة بليغة في المجمع الكبير الساعة الثامنة
يوبخ بها الكتبة والفريسيين
وسيسمع الجمهور موسيقى خصوصية للحفلة —

فقد كانت مواعظه قصيرة ارتجالية ، ولم يلقها الا كلما دعت اليها الحاجة . وقد ألقى عظة واحدة طويلة في حياته ولكن الجمهور كان يقطع حديثه بالسؤالات والمجادلات . فهو لم يأت الى العالم لتأييد نظرية لاهوتية ، بل انما جاء ليحيا حياة نقية طاهرة تكون نموذجاً صالحاً لجميع الاحياء على ممر العصور . ولما كانت معيشته صحية اكثر من كل معاصريه لذلك نراه يهب الصحة للناس حيثما سار . وهو اذ لم يفكر بغير الشجاعة والقداسة لذلك استطاع أن يعبر عن أفكاره بكلمات بسيطة فتانة ما برحت حتى الساعة مقياساً أعلى للشجاعة والقداسة . واذا جاز لنا أن نسمي أقواله مواعظ فقد انحصرت بايضاح حقيقة الخدمة التي كان يقوم بها . فقد كان يشفي مخلعاً ، أو يمنح النظر لرجل أعمى ، أو يطعم الجياع ويعزي المنكسري القلوب من الفقراء والمساكين فيعمل ذلك على اغلان شهرته اكثر مما لا قياس له من كلماته .

ان الكنيسة التي تطمح الى الاعلانات ولا تنال الا القليل منها ؛ هي بالحقيقة اكثر انتاجاً للاعمال الصالحة مما يتصور الرجل العادي في عمله . فان اكثر بيوت العلم في العالم قد وجدت بعناية الكنيسة ، واكثر ما في العالم من المستشفيات أوجدتها الكنيسة ويقوم أعضاء

الكنيسة بنفقاتها ؛ والمبادىء السامية التي يبنى عليها صرح المدينة الحديثة هي عند التحقيق مبادىء الكنيسة ؛ وأعضاء الكنيسة هم في الغالب ملح الارض الذي يحفظها من الفساد . وفوق هذا ، فان حياة الكاهن الصالح في جهاده المتواصل في رعيته ، هي سلسلة من عجائب الشفاء والتعزية لنفوس أبنائه كما يعرف كل ذي اطلاع على حياة الرعاة الحق . فان جرس باب الكاهن يقرع في وقت طعام الصباح ، ويقرع عند الغداء ، ويقرع في وقت العشاء ، ويقرع في منتصف الليل — وكل قرعة تؤذن بأن رجلا منحني الظهر تحت أثقال أحماله يرغب في أن ينزل أحماله ويضعها على كتفي الكاهن الجليل . يدخل الانسان الى بيت الكاهن وهو أعمى بطمعه أو بغضه أو خوفه — فيفتح قلبه للراعي الصالح ، ثم لا يلبث بعد هنيهة أن يرجع بعد أن يعود اليه نظره ببضع كلمات من المعلم الروحي الحكيم . ويحمل الوالد ابنه الميت بأنانيته ، ويأتي به حزين القلب الى الكاهن . فيلامس ضميره المخلع بيمينه فترجع اليه الحياة فى الحال ويعود الى بيته سالمًا مع والده الفرح بحياة ابنه الجديدة . ويأتي الفقير الذي لم يوفق الى عمل يعمله، ولذلك بات مهدداً مع عائلته من الموت جوعاً ، فيطرق باب الكاهن. وهنالك يجد بين الأرغفة القليلة والسمكات القليلة ما ينقذ به نفسه وعائلته من مجاعتهم .

هذه هي اعمال يسوع ، المكملة باسم يسوع . وهو لوجاء الى العالم اليوم ، لما اتخذ في هذا العصر الحديث وسيلة لاعلان نفسه سوى

الخدمة الصالحة دون الالفاظ الرنانه والمواعظ البليغه . ونحن واثقون بأنه قلما كان يعبأ بالكنائس الكبرى، بل كان ينشد الناس في الساحات العمومية لتقديم رسالته اليهم ، فأنه قلما علم في حياته على الارض في المجامع . لان اكثر اعماله واقواله قام بها في الاماكن المزدحمة ، في باحات الهيكل وفي مساحات المدينه حينما كان يجتمع الناس للبيع والشراء وقد بالغت في ايضاح هذه الحقيقة واظهار اهميتها الكبرى فى حياة يسوع لجمهور من الكهنة مرة .

فقال لي احدهم ، « وهل تريد ان نقدم مواعظنا في الشوارع ؟ »

ولكن الوعظ في الشوارع اليوم لايتفق مع العمل الذي قام به يسوع في حياته. فقد كانت المدن التي علم وعمل فيها صغيرة وكان الشعب فيها كسولاً قليل العمل ؛ ولذلك كانت الساحة العمومية ملتقى الناس يجتمعون اليها في كل يوم لسماع الاخبار الجديدة والتبادل بالبضائع والافكار . فاين تجد مثل هذه الساحات العموميه في هذه الايام الحديثة ؟ هل في زاوية من زوايا الشارع الخامس في مدينة نيويورك ؟ او في مربع من مربعات سوق برودواي) ؟ ان الناس لايجتمعون اليوم في زوايا الشوارع او ساحات المدن كما كانوا يفعلون في الاجيال الغابرة . وقد يقف الانسان واعظاً ومعلماً على ملتقى الشارعين الخامس والثالث عشر في مدينة كبيرة كنيويورك السنين العديدة ولا يدري بوجوده واحد من كل ماية الف من سكان المدينة لان لهم من اشغالهم مايلهيهم عن سماعه .

ان الساحة العامه في المدينـــة الحديثة هي الجريدة والمجـــله . والمجتمعات العمومية اليوم لاتوجد الا في اعمدة الجرائد .والمجلات الكبرى ، فالاعلانات المطبوعة هي الساحات العمومية التي يجتمع فيها البائع والشاري في هذا العصر الحذيث. وكل عدد من المجلات والجرائد الكبرى في عصرنا الحاضر هو معرض كبير ممتلىء بنتائج اعمال العالم فهنالك الثياب والســاعات والماثلات (الشمعدانات والمآ كل على انواعها والصابون والسجاير والسيارات — وافضل حاجات الانسان مدونة بالصورة الجميلة من اصحابها الذين يعلنونها بطريقـة جذابة للناس . فاعلان جميع اعمال الانسان على صفحات الجرائد السيارة التي هي الساحة العموميه للمدن الحديثه يدل على سير النـاس مع تيار المدنيه ولكن اهمال نشر مبادىء الناصري على صفحـاتها دليل على غفلة رجال الدين عن النقطة الرئيسية في الطريقة التى عمل بهـا يسوع في نشر تعاليمه في زمانه . فهو لو عاش في هذا العاصر لـكان اعظم المعلنين في الجرائد كما كان اعظم المعلنين في المجتمعات العموميه في زمانه . فأنه ولاشك كان يقدم لملايين الناس المتشوقين لمطالعـة اعمدة الصحف الاعلان التالى عن دعوته .

« ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ ام ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه ؟ »

بمثل هذا كان يحصر طلبه على صفحات كل جريدة او مجله، وبه كان يقدم دعوته للناس ليتشاركوا في التمتع بثمرات اعماله ومبادئه .

اكثر الناجحين من أرباب الصحف الكبرى يضعون لاعمالهم قاعدة نافذة خلاصتها انهم لاينشرون في صحفهم صورة ما لم تحتوي صورة انسان فيها . فنحن قبل كل شيء يهمنا كل مايتعلق بنا ، ثم يهمنا الوقوف على احوال غيرنا من الناس . نحب ان نرى صورهم ونعرف إعمارهم ، ونطلع على اقوالهم وأعمالهم . وقد لجأ يسوع في عمله الى هذه الطريقة بعينها في أيضاح آرائه وتعاليمه . فأن اعظم الايات التي وردت في الانجيل وأظهرت للفاهمين حقيقة السر الذي أودع فى شخصية المعلم الاكبر هي كما يأتي : «هذا كله قاله يسوع للجموع بأمثال ، وبغير مثل لم يكن يكلمهم .» والمثل قصة . ولذلك كان يقص عليهم قصصاً مختلفة عن الناس ويحمل هذه القصص المبادىء التي يريد غرسها فى القلوب . وقد كان فى وسعه ان يتبع غير هذه الطريقه من الطرق الكثيرة التى اعتمدها المعلمون الذين جاؤا قبله . فكان قادراً ان يعلم الناس عن طريق النصائح العمومية قائلاً .

(واذا شرعت فى عملك فكن لطيفاً جهدك . لاتهمل العناية بغيرك من الباعة السائرين معك على طريق الحياة . وليكن لك متسع من الوقت للعناية بمن أصيب بفشل فى عمله . قدم لهم يمين المساعده ماوجدت الى ذلك سبيلاً .

اقول انه كان قادراً أن ينهج هذه الطريقة فى تعليمه . ولكن هب أنه فعل ذلك ، فهل يخطر لك ان رجلاً في العالم اليوم كان يتذكر

كلماته ؟ ام هل كان في وسع التلاميذ ان يدونوها في كتبهم ؟ وهل كان هذا العصر الحاضر سمع باسمه؟ ولكن يسوع كان أحكم كثيراً من هذا في ادراك شرائع الفكر البشري وعاداته . فأنه عوضاً عن النصائح العمومية المسطرة أعلاه رسم لجمهور المصغين اليه الصورة الآتية ، قال :

« كان رجلاً منحدراً من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص »

ففي مطلع هذه القصة قوة تجلب انظار الذين كانوا يقطنون في أورشليم أو أريحا لقراءتها أو سماعها . ولو كان عليك أن تسير في تلك الطريق أفما كنت تتوق الى معرفة ما حدث لذلك المسافر الواقع بين اللصوص..

« فعروه وجرحوه ، ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت . »

فاتفق في تلك الساعة ان كاهناً كان منحدراً في ذلك الطريق ، فأبصر الضحية وقال في ذاته : « ما أفظع هؤلاء اللصوص ! ان رجال الامن العام يجب أن يقوموا بواجباتهم في المحافظة على النفوس البريئة. » ولكنه جاز بالمسكين وهو شديد العناية لئلا تتلوث ثيابه بدمه . ثم وافى المكان لاوي محترم ، فنظر الى الجريح وقال شامتاً ، « كل الحق عليه ، فقد كان الأجدر به أن يكون اكثر تحفظاً مما كان في سفره . وهكذا جاز مقابله . ثم جاء مسافر ثالث ، واذ مر بالواقع بين اللصوس ، وقف — والعالم بأسره يعرف ما حدث بعد ذلك ... ان

جميع التعاليم الحكيمة يمكن أن تزول آثارها من أذهان الناس . ولكن القصة التي تتأصل جذورها في حاجات الناس اليومية واختباراتهم تعيش حتى اليوم وستعيش الى الابد . فهي تعبر عن فلسفة المسيحية الحقيقية ببضع عبارات بسيطة باقية في العالم ما بقي الانسان . لان مثل السامري الشفيق هو أعظم اعلان في الرحمة منذ وجد الانسان على سطح الارض حتى الساعة .

خذ أي مثل اردت من امثال يسوع ـ وهنالك ترى دليلا واضحاً لجميع المبادىء التي تبنى عليه الاعلانات الحديثة بأسرها . في الكلمات الاولى من كل مثل ترى صورة واضحة للحقيقة التي ينطوي المثل عليها ؛ ثم تعقبها العبارات السهلة البسيطة التي يقدر أبسط الناس على فهمها .

عشر عذارى خرجن للقاء العروسين

صورة فتانة وعنوان جذاب . وليس في القصة التي تلي ذلك كلمة في غير موضعها:

« خمس منهن جاهلات ، وخمس حكيمات .

« فأخذت الجاهلات مصابيحهن ، ولم يأخذن معهن زيتاً ؛

« وأما الحكيمات فأخذن زيتاً في انيتهن مع مصابيحهن .

« واذا أبطأ العروس نعسن كلهن ونمن .

« فلما انتصف الليل اذا صراخ ، هوذا العروس قد أقبل ، اخرجن للقائه .

« حينئذ قامت أولئك العذارى جميعاً وهيأن مصابيحهن .

« فقالت الجاهلات للحكيمات ، اعطينا من زيتكن ، فأن مصابيحنا تنطفىء .

« فأجابت الحكيمات وقلن، لعله لا يكفي لنا ولكن، فالاحرى أن تذهبن الى الباعة وتبتعن لكن .

« فلما ذهبن ليبتعن وفد العروس ، ودخل معه المستعدات الى العرس ، وأغلق الباب .

« وأخيراً أتت بقية العذارى قائلات ، يارب ، يارب، افتح لنا

« فأجاب وقال ، الحق أقول لكن ، أني لا أعرفكنّ .

« فاسهروا اذن ، فأنكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الانسان »

خذ هذه القصة وارسم لها أجمل الرسوم بريشة فنان عبقري ؛ ودونها بقالب حديث جذاب، واطبعها في مجلة كبيرة مع مائة صفحة من نوعها ، وتأمل بعد ذلك كيف يقبل الجمهور على مطالعتها ، والتكالب على شراء المجلة التي تنقلها لهم .

واليك بهذه القصة الثانية :

ماذا حدث للخروف الضال .

« أي رجل منكم ، اذا كان له مئة خروف ، فأضاع واحداً منها ، لا يترك التسعة والتسعين في البرية ، ويمضي في طلب الضال حتى يجده ؟

« فأذا وجده يحمله على منكبيه فرحاً .

« ويأتي الى البيت ، ويدعو الاصدقاء والجيران ، ويقول لهم فرحوا معي ، فأني وجدت خروفي الضال . . . . .

«أقول لكم انه هكذا يكون في السماء فرح بخاطىء واحد يتوب بأكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقاً لا يحتاجون الى التوبة . »

هب أنه طلب منك أن تعلن للعالم أن الله شديد الاهتمام بحياة الانسان لا فرق أمامه كيف كانت تلك الحياة من الشذوذ والضلال — فهل في وسعك أن تعبر عن ذلك ببيان أنصع وعبارة أوضح من هذه القصة ؟ فأن الحقيقة فيها ظاهرة بجمال فتان تأخذ بساطته بمجامع القلوب وتسري الى أعماق الارواح . « آتي بنيامين فرانكلين » في ترجمة حياته التي دونها بيده على الطريقة التي بلغ بها الى فنه الفصاحة والبلاغة في الكتابة الانجليزية . ومما قاله أنه كان يختار قطعة لاحد أساتذة المنشئين الانجليز ، فينكب على مطالعتها ، ثم يضع الكتاب جانباً ، ويعمد الى التعبير عن افكار الكاتب بلغته الخصوصية ، وبعد الفراغ من كتابته كان يقابل بين ما كتبه بكلماته الخاصة وبين ما كتبه المنشيء الكبير ، وهكذا كان يهتدي الى المواضع التي لم يحسن التعبير فيها عن افكار المؤلف ، أو أسهب في شرحها أو فشل في في السير الى النقطة الرئيسية من الموضوع دفعة واحدة .. وكل من يشتغل بكتابة الاعلانات من أرباب الاعمال يجب أن يمعن النظر بدرس أمثال يسوع مثلاً مثلاً ، ويتعلم طريقة الاعلان منها ويعود

نفسه على تحدي لغتها والاعتماد على هذه المبادئ الاربعة الاولية فيها .

١ : فهي قبل كل شيء تعبر عن حقيقة عظيمة بالفاظ وجيزة منتقاة كل منها لموضعها ، وهكذا يجب أن تكون الاعلانات . طلب « تشارلز دانا » Charles A. Dana مرة الى احد مراسليه الا تشغل مقالته اكثر من عامود واحد من جريدة « الصن » النيويوركية فاعترض الكاتب قائلا أن الموضوع لا يمكن أن يشبع بحثاً بمثل هذه المساحة القليلة .

فأجابه « المستر دانا » على الفور قائلا : « خذ لك نسخة من التوراة واقرأ الفصل الاول من سفر التكوين ، وانت ولاشك تدهش اذ ترى أن قصة تكوين العالم بأسره لم تأخذ فيه ست مئة كلمة . »

لاكثر أرباب المجلات والصحف الكبرى قاعدة يتبعونها بكل دقة في التحرير وهي أن المقدمة التي يضعها الكتاب لكل مقالة من مقالتهم يمكن حزفها في الغالب من غير أن يؤثر ذلك البتة في الحقيقة التي تعبر المقالة عنها . وأعظم أرباب الاقلام المتمرنين على الكتابة كثيراً ما يكتبون المقدمات التي لا طائل تحتها قبل شروعهم في موضوعهم الرئيسي . أما كاتبوا الاعلانات فأنهم مع اضطرارهم الى الايجاز الدقيق في كتاباتهم يلجأون في الغالب الى الكثير من الالفاظ التي لا فائدة منها . فقد طالما تقرأ وتقرأ وتقرأ وأنت لا تصل الى الغاية التي يريد المعلن أن يوصلك اليها . أن يسوع لم يلجأ الى المقدمات في تعاليمه . فأن عبارة واحدة من أقواله تكفي لاستلفات انتباهك بأسره

وثلاث أو أربع عبارات أخرى تبسط الموضوع كله أمامك . وعبارة أو عبارتان بعد ذلك تستخلصان لك الحقيقة التي ينطوي عليها الكلام فعندما كان يريد تلميذاً جديداً ، كان يقول له كلمة واحدة: «اتبعني» فيتبعه في الحال . وعند ما أراد أن يوضح للناس أعمق أسرار الفلسفة — شخصية الله وخلقه تعالى — قال : « انسان ملك أعد وليمة ودعا اليها مدعوين كثيرين . فالله هو الملك وأنتم المدعوون الى وليمته . فأن ملكوت السماوات هي السعادة — أو الوليمة المعدة للفرح »

خطب رجلان في ساحة الحرب في «جتسبرغ» من أعمال الولايات المتحدة الاميركية منذ ستين سنة . فألقى الاول خطبة استغرق ألقاؤها ساعتين ونيفاً ؛ وليس بين قارئي هذه الكلمات واحد في كل عشرة أشخاص يتذكر اسم ذلك الخطيب ؛ وليس واحد في كل مئة يتذكر كلمة من خطاب ذلك الخطيب البليغ : أما الخطيب الثاني فقد نطق بمايتين وخمسين كلمة فقط ، وهذه الكلمات التي يتألف منها خطاب « لينكلن » في « جتسبرغ » هي حتى الساعة جزء من محفوظات كل أديب في الولايات المتحدة .

كثيرة هي الصلوات التي وضعها الانسان لاستعطاف العزة الآلهية على ممر العصور ، وأكثرها طويلة بالغة الوقع في قلوب المصلين . أما الصلاة التي علمها يسوع لتلاميذه فانها تتألف من ثمان وستين كلمة (بالانكليزية — وهي بالعربية ثمان وثلاثون كلمة) ويمكن أن تكتب بكاملها على بطاقة صغيرة (كرت بوستال) . ان أشعاراً كثيرة

ومقالات عديدة سطرها الشعراء والادباء على ممر القرون وهم يحسبون أنها ستخلد أسماءهم في بطون الاوراق وكتب الآداب ؛ ولكن أعظم قصيدة تمخض بها خيال شاعر على الارض تتألف من مائة وثمان وثمانين كلمة وهي المزمور الثالث والعشرون [1]

وكان يسوع يكره الخطب الطويلة . ولذلك مدح قائد المئة الذي لم يشأ أن يضيع وقته بما لا طائل تحته ؛ والصلاة الوحيدة التي أقرأها أمام الجموع هي صلاة العشار المسكين التي تفوه بها في الهيكل قائلا : « يا الله ، ارحمني أنا الخاطي . » وهي لا تتجاوز الخمس كلمات وقد أودع في صلاته الربانية المختصرة كل ما يحتاج المخلوق الى طلبه من الخالق وكل ما يمكن أن يسمعه الخالق من المخلوق . فما عساه يحكم يا ترى في أكثر صلواتنا وخطبنا واعلاناتنا ؟

٢ : كانت لغته عجيبة ببساطتها — وفي هذا المعين الثاني لقوته

---

(١) قد أحصيت كلمات هذا المزمور الانكليزية فاذا هي مائة وتسع عشر كلمة وقد لا يكون المؤلف دقق في عدها قبل الكتابة . والمزمور بالعربية كما يأتي والقارىء أن يعد كلماته :

« الرب راعي فلا يعوزني شيء . في مراع خصيبة يقبلني ، ومياه الراحة يوردني . يرد نفسي ويهديني الى سبل البر من أجل اسمه . أني ولو سلكت في وادي ظلال الموت لا أخاف سوءاً لانك معي عصاك وعكازك هما يعزيانني . تهيء أمامي مائدة تجاه مضايقي ، وقد مسحت رأسي بالدهن وكاسي مروية . الجودة والرحمة تتبعانني جميع أيام حياتي ، وسكناي في بيت الرب طوله الايام . » ا هـ (المترجم)

فقلما تجد فى تعاليمه عبارة واحدة يعجز أصغر الاولاد عن فهمها .
وقد كانت أمثاله من حياة الناس اليومية : « خرج الزارع ليزرع ؛ »
و « كان لرجل ابنان ؛ » — « بنى رجل بيته على الرمل ؛ » —
« يشبه ملكوت السماوات حبة خردل . » وأدهش ما في أقواله أنها
خالية من النعوت الكثيرة . قال « هنري ورد بيتشار » Henry
Ward Beecher مرة «أن النعوت في الغالب أشبه بالاوراق النابتة
على غصن تمسكه بيدك . فهي قد تساعد الغصن على الظهور بمظهر
الجمال ولكنها تعيقك عن استعماله برشاقة وخفة .

« أذكر حادثة جرت مرة لوالدي ، وهي انه انتخب في اجتماع
عام أن ينتقد مقالة . فكتب عبارة واحدة وهي « الكلام مغلوط . »
فنهض أحد الحضور واعترض بملء الحماسة قائلا ، بل يجب أن
تصلح هذه العبارة هكذا ، « الكلام مغلوط جداً » . فنهض والدي
بهدوئه المعتاد ، وقال : « عند ما كتبت انتقادي للمرة الاولى ،
أوردت هذه العبارة بالصورة التي اقترحها المعترض الفاضل . وبعد
أن أمعنت النظر فيها ورغبت في أعطائها قوة أكثر من ذلك رأيت
أن أحذف منها الكلمة « جداً . »

لم يستعمل يسوع النعوت في كلامه ؛ وخصوصاً الطويلة منها .
وقد أشرنا منذ هنيهة الى ثلاث قطع ممتازة في عالم الأدب وهي الصلاة
الربانية ، والمزمور الثالث والعشرون ، وخطاب « لينكلن » في
« جتسبرغ » . وهي تبدأ هكذا :

« أبانا الذي في السماوات ، ليتقدس اسمك . »

* * *

« الرب راعي ، فلا يعوزني شيء . »

* * *

« منذ سبع وثمانين سنة . . »

* * *

كلمات بسيطة قليلة المقاطع كبيرة المعاني . وأكثر فضائل الحياة تعبر عنها كلمات بسيطة ذات مقطع واحد مثل — المحبة ، الفرح ، الرجاء البيت ، الولد ، الزوج ، الثقة ، الايمان ، الله — ولذلك فان أبلغ الاعلانات هي في الغالب تلك التي لا تستعمل فيها الا الكلمات البسيطة الصغيرة .

٣ : يشع الاخلاص في كل كلمة من كلمات يسوع بنوراً أوفر لمعان من الشمس : والاخلاص شرط ثالث في الكلام . كثير هم الاغنياء الذين يشترون الجرائد الكبرى رغبة في زيادة ثروتهم أو تعزيز مبدأ سياسي يعود عليهم نجاحه بالارباح الطائلة . ولذلك تسير مثل هذه الجرائد في الغالب الى الفشل الاكيد . ومهما بالغ اصحابها في الانفاق عليها أو التكتم في حجب غايتها الرئيسية عن الناس فان جمهور القراء يعرضون عنها لشعورهم العميق بعدم اخلاص القائمين بها . فهم يعرفون في الحال ان الكاتب الذي يقوم

بتحريرها لا يعبر عن عواطفه ولكنه آلة تتحرك بيد سواه. وللشعب في مثل هذه القضايا حاسة سادسة يدرك بها عدم الاخلاص في كتابة الادباء لاول لحظة ، و يعرف بدليل الغريزة متى كان الاخلاص رائد الكاتب في تدوين افكاره .

بمثل هذه القوة كان ينظر يسوع الى الناس ، ويبسط أمامهم مبادئه وآراءه فيحملهم الى قبولها بأخلاصه ومحبته . فقد كان ما قاله مصداقاً لكل حركة من حركاته . ولم ينظر رجل الى وجهه أو سمع كلمة من كلماته من غير أن يتركه وهو واثق بمحبته الفائقة لجميع الناس و بذله قصاري جهده في خدمة أحقر المساكين كما كان يخدم أعظم العظماء وليس بين أعداء الفكر الصحيح أردأ من الوهم الذي يستولى على فكر الكاتب فيحمله الى الاعتقاد بقدرته على الكتابة الى الجمهور بالطريقة التي يريدون . وما من زعيم أو كبير استطاع أن ينجح في عمل من أعماله من غير أن يضع الاخلاص أساساً له . ولكن كثيرين من الرجال البسطاء ، كبطرس الناسك و « بيلي سنداي » Billy Sunday ، استطاعوا أن يثيروا نيران الحماسة في قلوب جماهير الناس بقوة إخلاصهم وايمانهم الشديد بما يقولون .

وكان يسوع كثير التساهل مع جميع أنواع الخطاة . وكان يحب الضالين المتمردين على رجال الدين والمجامع التي يجتمع اليها المؤمنون. وكان عطوفاً على الزواني والسكيرين ؛ وكان يحب بنوع خاص التلميذين يعقوب و يوحنا الشديدي الغضب اللذين اطلق عليهما اسم

« ابني الرعد » لحدة طباعهما ؛ وقد سامح ضعف بطرس الذي انكره؛ ولم ينتقم لانسبائه وأقربائه الذين اضطهدوه ورفضوا الايمان به . وقد وبخ الفريسيين والزعماء العظماء لريائهم وعدم اخلاصهم بلهجة قاسية جداً . فقد خيل اليهم أنهم محتكرون ملكوت الله بطقوسهم وفرائضهم الكثيرة ، ولكنه أوضح لهم أنه لا يستطيع أن يدخل الى الملكوت السماوي الا الذين يرجعون و يصيرون مثل الاولاد ببساطتهم واخلاصهم

فالاولاد الصغار لا يعرفون الادعاء في أقوالهم . فهم ينظرون الى العالم بعيون طاهرة ولا يقولون الا ما تختلج به ضمائرهم . ولا يقدر كاتب أو خطيب أو بائع أن يتمتع بأحقر نفوذ على الارض ما لم يواضع نفسه و يتعلم من الاولاد الصغار الاخلاص الكامل في الحياة .

قال الرسول بولس : « لو كنت أنطق بألسنة الناس والملائكة، ولم تكن فيَّ المحبة ، فأنما أنا نحاس يطن أو صنج يرن . »

أن نحاساً كثيراً قد طن ، وصنوجاً عديدة قد رنت بأسم الاعلان ؛ ولكن الاعلانات التي أقنعت الناس يعملوا بما تطلبه منهم انما كتبها رجال يحترمون عقول قرائهم وأفهامهم ويخلصون في كل كلمة يقولونها عن البضائع التي يودون بيعها .

٤ : عرف يسوع أخيراً الحاجة الى التكرار ومارسها في حياته على الارض . كان أحد أبناء الرئيس « غرفيلد » Garfield مرافقاً له في سفرته الى ولاية « اوهايو » لزيارة معارض مقاطعاتها والقاء الخطبة الافتتاحية فيها . وعند نهاية عمل الرئيس في اليوم الاول سأل ابنه ماذا

يعتقد بخطاباته . فتحير الولد فى الجواب ولـكنه قال بصوت متقطع :

« قد كانت جميلة كلها ياسيدي الوالد العزيز ولكنني شعرت بسآمة كثيرة وأنت تلقيها على الجمهور . وقد يكون ذلك لانك كنت تكرر الحقيقة الواحدة غير مرة ، حتى انني لحظت مرة أن حقيقة واحدة كررتها أربع مرات بألفاظ مختلفة . »

فنظر الرئيس الى ابنه ضاحكاً ووضع يده على كتفه علامة الرضى وقال له :

« قد فكرت ولا شك أن أباك لم يجد بضاعة كافية لخطاباته ولذلك كان يكرر القضية الواحدة غير مرة. أليس الامر هكذا يا ابني؟ انني لا ألومك؛ ولـكن في جنون أبيك طريقة نافعة. فسأعود في الغد الى تكرار هذه الحقيقة التي ذكرتها اليوم أربع مرات ، ومتى أشرت اليها في خطابي اذكر ولا تنس أن تراقب الجمهور . فأنني اذا ذكرتها للمرة الاولى تقدر أن تقرأ على وجوه بعض الجالسين امام منبر الخطابة أنهم أدركوا ما قصدت ، ولـكن الجالسين الى الوراء تضيع عليهم هـذه الحقيقة بين الحركات والاشارات ، فأن الناس يلتفتون بين الهنيهة والهنيهة ليروا من دخل جديداً الى القاعة ، وما هـو شكل القبعة التي تلبسها السيدة «حنه» مثلاً ، ولذلك لا يسمعون قولي البتة . فأذا كررته للمرة الثانية ، وصل الى الجالسين في نصف القاعة ؛ وفي المرة الثالثة يسمعها أكثر الجمهور، وفي المرة الرابعة تبلغ رسالتي الى أذهان جميع السامعين . فقد علمني الاختبار في مواقف عديدة كهذه أن

الحقيقة تحتاج الى أن تعلن أربع مرات قبل ان يفهمها السامعون جميعاً»

قد قيل « في الاعادة الشهرة » وما من حقيقة يمكن أن تنطبع في أذهان جماهير الناس اذا ذكرت لهم مرة واحدة لاغير . فقد كانت الافكار التي جاء يسوع لاعلانها في العالم ثوروية ولكنها كانت قليلة . ويمكن التعبير عنها بما يأتي : « أن الله هو أبوكم السماوي ، وهو يعتني بكم أضعاف ما يعتني الأب الارضي بأولاده . مملكته هي السعادة ! وسلطته هي المحبة . » هذه خلاصة موجزة لتعاليمه بأسرها . ولكنه أدرك الحاجة الى تأديتهـا بطرائق مختلفة لترسخ في جميع الاذهان على السواء . ومن أمثاله الخالدة تشبيهه الله بالراعي الذي يجد في البراري في طلب الخروف الضال ؛ وفي مكان آخر يشبهه تعالى بأب شفيق يستقبل ابنه الضال بقلب حنون عطوف ؛ وفي موضع آخر بملك عظيم يسامح عبيده بديونهم ويتوقع منهم أن يسامح بعضهم بعضاً ديونهم كما سامحهم هو — أمثال كثيرة واعلانات كثيرة ولكن الحقيقة واحدة .

وقد كتبت اعلانات المعلم الصالح بطريقة لا يمكن نسيانها أو الاعراض عنها ولذلك عاشت رسالته حتى اليوم وهي مابرحت الينبوع النقي لجميع ما في العالم من الفضيلة والصلاح . وليس شك في أن اعلان مبادىء يسوع كما يبلغ الى حده النهائي . فأن الرأي القائل بأن الله هـو أب عام لجميع الناس — وليس لفئة معينـة من المختارين والممتازين — يجب أن يعلن للناس بطرائق جديدة في كل عام .

فنحن بأكثريتنا ان لم نكن بجماعنا نشارك الشريف الفرنسوي في شعوره الذي تعبر عنه قصة القديس سمعان الخالدة — الشريف الذي كان واثقاً بأن الله « سيفكر مرتين قبل أن يحكم على الانسان في يومه الاخير . » قالت « دوقة بوكينفام » في رسالة بعثت بها الى « كونتة هينتينفدون » Huntingdon

« أنني اشكر لحضرتك تلطفك بالايضاح الذي ارسلتيه الي عن المبشرين المتوديست ؛ فأن عقائدهم متمردة ممزوجة بروح الوقاحة وعدم الاحترام لرؤسائهم... انه لمن افظع الامور ان يخبرك امثال هؤلاء الوقحين ان في صدرك قلباً خاطئاً كقلوب جميع الاشقياء الذين يدبون على الارض . ان عملاً كهذا يحسب اهانة وتعدياً ، ولا استطيع ان اتصور كيف تتحملين مثله من الاعمال التي تخالف على خط مستقيم العادات المرعية بين البيوت الكبيرة والنبلاء العظماء . »

ولكن الاعلانات العظيمة عن تعاليم المبشرين المتوديست ظلت تواظب سيرها الى النجاح رغماً عن جميع دوقات « بوكينفام » . وقد دكت عروش الملوك المستبدين وحلت محلها صروح الديموقراطية الحديثة قائمة على اساس الحقيقة الثابتة القائلة ان الناس احرار في جميع اعمالهم وهم متساوون في نظر الشريعة والتمتع ببركات الحياة وما برحت الطبقات الممتازة توالي اعتراضاتها على الاحرار المفكرين حتى اليوم ، ولكن العالم يتقدم في كل ساعة في طريقه الى تأييد العدالة والسعادة والصلاح فى حياة جميع ابنائه .

وكل من يشعر برغبة خفية في أعماق قلبه تحمله الى جعل حياته ذات ثمرة صالحة في هذا الوجود لايستطيع أن يجد لنفسه دليلاً للبلوغ الى ضالته المنشودة أفضل من الدليل الذي تقدمه له اعلانات يسوع. لذلك فليجهد فكره في تعلم درسها الخالد، الذي يظهر له انه اذا أراد أن يعلم الناس وجب عليه للحصول على انتباههم ومحبتهم له ولتعليمه أن يقدم لهم قبل كل شيء أخباراً حقيقية ؛ وأن يستلفت أنظارهم بأعماله وخدماته قبل أقواله وعظاته ، وأن تكون جميع أقواله بسيطة، وجيزة ، مخلصة — ممتلئة بالحب والاحترام لجميع الناس على السواء .

فقد قال المعلم الصالح · « أنتم أصدقائي . »

الفصل السادس

مؤسس العمل الحديث

عند ما كان يسوع في الثانية عشرة من العمر أخذه أبوه وأمه معهما الى العيد في أورشليم .

وقد كان هذا العيد فرصة عامة للامة ؛ حتى ان أفقر الفلاحين كانوا يوفرون من وارداتهم القليلة ليقوموا بزيارة المدينة العظيمة في يوم العيد . وكانت المدن التي كالناصرة تفرغ من سكانها في مثل هذا العيد ولا يبقى فيها سوى الشيوخ الذين تعيقهم شيخوختهم عن السفر وكانوا يعتنون بصغار الاولاد الذين لم يكونوا قادرين على

السفر أيضًا . وكانت جماهير الزوار تملأ الطرق الى اورشليم وأصوات الافراح تتعالى من صفوفهم الى كل جهة .

ولا عجب أن نرى ولداً في الثانية عشرة من عمره يضيع بين جموع كهذه . ولذلك عند ما وجد يوسف ومريم أن يسوع ليس بين الرفقة في الطريق الى الناصرة لم يستغربا الامر كثيراً وطافوا يفتشون عنه بين الانسباء .

بيد أن تفتيشهما لم يجدهما فائدة . ولكن بعض الاصحاب قالوا لهما أنهم رأوه في الهيكل ولكنهم لم ينظروه بعدئذ . فخافت مريم اذ ذاك ؛ وشرعت تسائل نفسها أين عمكن يكون ؟ أهل هو هنالك في المدينة وحده ؟ هائمًا جائعًا تعبًا في الشوارع ولاصديق يعطف عليه؟ أم هل حمله أحد المسافرين الى بلاد بعيدة ؟ قد صورت أمام عينيها مأية مصيبة في تلك الساعة . ولذلك أسرعت في الحال مع يوسف ورجعا في طريقهما الحارة الى أورشليم وهما يفتشان في شوارعها وأسواقها عن الصبي يسوع حتى وصلا الى ساحات الهيكل نفسه .

وهنالك وجدا يسوع .

وهو لم يكن ضائعًا : بل كانت علائم الرضا بادية على وجهه . وكأنه لم يكن يشعر بانتهاء العيد ، ولذلك كان جالسًا في وسط جماعة من الشيوخ ، الذين كانوا يجهدون افكارهم بمطارحته السؤالات العويصة في الناموس والانبياء فتأخذهم الدهشة لدى كل جواب يخرج من شفتيه . ومع شدة تأثر الوالد والوالدة ، فأنهما لم يستطيعا أن يقولا

له شيئاً ، ولكن أمه تقدمت اليه وأخذت بيده بين الجمهور واخرجته خارجاً وقالت له :

« يا ابني ، لماذا عملت بنا هكذا ؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك متوجعين . »

لا أدري ما هو الجواب التي توقعت أن تسمعه من يسوع . وهل سبق لها أن عرفت ماذا سيقول لها قبل ان ينطق به ؛ ام هل كان في الناصرة كلها رجل أو امرأة قط يستطيع ان يفهم حقيقة هذا الفتى الذكي الفؤاد الذي تختلف جميع تصرفاته عن ابناء جيله .

ولكن يسوع اجابها الآن بملء الاحترام على جاري عادته ، ولكن جوابه لم يزل حيرتها بل زادها ضلالاً عن ادراك حقيقته .

قال : « ولماذا تطلبانني ؟ افلا تريدان ان اقوم بعمل ابي ؟ »

عمل أبيه ! هذا هو نفس ما كان يطلبانه منه أن يقوم به . فأن أباه كان يملك دكانا نجارة كبير في الناصرة ، وهذا هو العمل الذي يجب أن يسير اليه الصبي ولذلك فتش أبوه وامه عنه متوجعين . وقد همت بأن تقول له هذا ، ولكن كان في نظرته ورنة صوته قوة وقفت امامها صامتة لا تدري ما تقول او تفعل . ولذلك تركت الهيكل يرافقها يوسف والصبي وراؤهما وهكذا صاروا جميعاً راجعين الى الناصرة .

على ان انتصار الصبي في فجر حياته لم يسكره قط . فقد ادرك جيداً عظم الواجب الذي يفرض عليه القيام به للاستعداد للنجاح في عمله الكبير . فأن البناية تستطيع ان تتعالى فوق الارض بالنسبة

الى نزول اساسها في قلب الارض ؛ والجزء الذي يراه العالم من حياة الانسان يتوقف نجاحه على نجاح الجزء الذي مضى ولم يره احد من الناس . وقد عرف يسوع كل هذا بقوة غريزته . ولذلك رضي بالحياة في دكان النجارة ثمانية عشر سنة بعد تلك الحادثة الى ان بلغت قوته قنة النجاح ؛ وفرغ من القيام بجميع واجباته نحو امه وبيت ابيه ، ودنت ساعته الحقيقية .

واكثر ما يهمنا من هـذه الحادثة التي جرت في صبوته انه عرف الغاية من حياته للمرة الاولى في تاريخه . فهو لم يقل لوالديه : « الا تريدان ان امارس الوعظ ؟ » او « الا تريدان ان استعد لمقابلة مجادلات امثال هؤلاء الرجال ؟ » ولـكنه سألهما سؤالا يختلف الاختلاف كله عن هذا ، بقوله : « الا تريدان ان اقوم بعمل ابي ؟ فقد اطلق على حياته اسم عمل . وماذا عنى بقوله « عمل » ؟ وهل في وسعنا اليوم ان نطبق المبادىء التي اعتمدها في عمله على الاعمال التي نقوم بها ؟ ولو جاء الى هذا العالم اليوم بما فيه من التزاحم في الاعمال ، فهل يستطيع ان ينفذ فلسفته في عمله كما نفذها في حياته ؟

أنك ولا شك تذكر تعريفه للنجاح عند ما جاءه يعقوب ويوحنا يطلبان المركز الاول في الملـكوت . فقد كانا شابين متحمسين أكثر من الجميع ، ولذلك اطلق عليهما اسم « ابني الرعد » لشدة رغبتهما في القتال والخصام . وقد انخرطا في سلك التلاميذ لانهما احبا يسوع ، ولـكنهما لم يـكونا عارفين بشيء عن غاية الجمعية ؛

ولذلك اقبلا الى المعلم مرة يسألانه عن غاية العمل الذي يقدمون به ، وماذا سيصيبهما منه .

فقالا له : « يا معلم ، نود أن نعلم ما هي المراكز التي تعدّها لنا لقاء عملنا . فانت ولا شك ستحتاج الى رجال عظماء ؟ فيعاونوك في عملك عندما تؤلف ملكوتك ؛ ونحن نطمح الى الجلوس عن جانبيك ، واحد عن يمينك والاخر عن يسارك . »

ومن يقدر أن يعارض الرسولين بطلب كهذا ؟ لان الانسان إذا لم يهم بنفسه فان الناس يهملون الاهتمام به . وإذا رغبت في مركز كبير فالواجب يقضي عليك أن تجد في طلبه . وكل من جدّ وجد .

ولكن يسوع أجاب بعبارة قد تبدو لاول نظرة سخيفة عقيمة .

قال : « من أراد أن يكون فيكم كبيراً فليكن لكم عبداً ، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن خادماً للجميع »

عبارة شعرية فتانة ! ولكن هل من يسلم بها اليوم ؟ كن عبداً صالحاً تكن عظيماً بالحقيقة ؛ وكن خادماً فاضلاً تبلغ الى أول مراكز الوجاهة والاعتبار . كل هذا جميل من الجهة الخيالية ولكنه غير قابل التنفيذ في رأي الاكثرية الساحقة من الناس ؛ ولذلك فهم ينظرون اليه باحتقار . وقد طالما فكر الناس بذلك على ممر مئات السنين وعملوا بما فكروا ، ولكنهم افاقوا فجأة من غفلتهم

فا كتشفوا اعظم كنوز العمل . وكثيراً ما تسمع هذا الا كتشاف يذاع في المجتمعات التجارية الكبرى بين احدث ما ا كتشفه رجال الاعمال في العصر الحديث . وهو ظاهر في كل اعلان من الاعلانات التي تطالعها على صفحات الجرائد والمجلات

تأمل في اعلان قريب اليك .

وقد تجد أمامك أعلان شركة « أوتوميبلات » ، من اعظم شركات العالم . فلماذا هي عظيمة بهذا المقدار ؟ وما هو الاساس الذي تبني عليه طلبها للزعامة ؟ هل تبني ذلك على آلاتها ومعاملها الكبيرة ومقدرتها المالية ؟ كلا أنها لا تفعل شيئاً من هذا . أعلى جيوش عمالها أو جماعات مداريها الذين يتناولون الاجور الباهظة ؟ قد تقرأ أعلاناتها سنين عديدة ولكنك لا تجد شيئاً مثل هذا ، ولكن الاعلانات نفسها توضح لك قائلة بلسان اصحاب الشركة :

« نحن عظماء بسبب خدمتنا . فنحن مستعدون ابداً للزحف تحت أتومبيلك لاصلاحه ثم الخروج وعلى ظهورنا اضعاف ما على ظهور غيرنا من ابناء الشركات الاخرى من اثار العناء الكثير . زر محطات الخدمة العمومية التي تخصنا في جميع أنحاء البلاد وهنالك يتضح لديك صدق ما نقول لك . نحن نخدم الناس بفرح ولذلك نمو بقوة . »

وصاحب معامل الاحذية يقول في اعلانه : « نحن نضع ذواتنا تحت قدميك . ونقدم لك كل ما تود ان تطلبه منا . » وأصحاب

المعامل التي تصنع مواد البناء والثياب والطعام ورؤساء شركات السكك الحديدية والبواخر الكبرى ، ورؤساء المصارف وشركات التأمين — جميع هؤلاء يقولون لك بلهجة واحدة أن عظمتهم تقوم بخدمتهم . وهم يطلقون على الخدمة اسم « روح العمل الحديث . » وكثيراً ما يخيل اليهم أن هذه الروح جديدة في عالم الاعمال . ولكن يسوع علم بها منذ نيف والف وتسع مئة سنة .

كان جورج و . باركينز « George W. Perkins » يحدث رفقاؤه في القطار في احد الامساء عن الاسباب التي تعمل في الغالب على نجاح الانسان في اعماله والاسباب التي تعمل على فشله .

قال: كثيراً ما اقف منذهلاً أمام الشبان الذين يأتون اليّ طالبين أن استعمل نفوذي الشخصي لاحصل لهم على مراكز يحصلون منها على أجرة أوفر من الاجرة التي ينالونها في عملهم . وهم عند التحقيق يظهرون بتصرفهم انهم يجهلون القواعد الرئيسية التي تقود صاحبها الى النجاح الاكيد . فقد قضيت عمري في خدمة شركة ضمان الحياة النيويوركية ولكني لم اسأل مرة قط عن مقدار الاجرة التي كنت أنالها أو المركز الذي اشغله . ولم يكن بيننا نحن الذين صنعنا هذه الشركة من كان يشغل نفسه بمثل هذه السؤالات البليدة قد كان لنا حلم لذيذ عملنا على تحقيقه بنشر خدمة الشركة في جميع انحاء العالم ، وجعلها أفضل شركة من نوعها في جميع انحاء العالم . وقد تم لنا أن عملناها كما أردنا فعملتنا هي في دورها اغنياء جداً . »

هذا كلام معقول — ينطبق على نظام العمل الصحيح للنجاح الصحيح . ولكن ماذا تظن بهذا القول الآتي الذي قاله يسوع ؟

« إذا كنت تحصر كل افتكارك بخلاص حياتك فانك تخسرها ،لكن الذي يخسر نفسه فهذا يجدها . »

قد اعرض العالم عن هذا القول لمجرد أن يسوع قاله، و يسوع كان زعيماً دينياً، ولم يتوقع العالم منه سوى التعاليم الدينية الادبية التي لا دخل لها باعمال الانسان ومصالحه اليومية ! ولكن قف هنيهة وامعن فكرك في هذا القول ؟ ماذا عني « باركينز » بكلماته غير أنه هو ورفقاؤه قبروا انفسهم في مشروعهم الكبير وكانهم خسروا حياتهم به ؟ وعندما وجدوا حياتهم ثانيه كانوا بأسرهم اعظم واغنى بما لا حد له مما كانوا يفكرون بالبلوغ اليه . فهل كان في الامكان ان يصادفوا مثل هذا النجاح لو كانوا شديدي الاهتمام بذواتهم ؟ ام هل كان من سبيل لاحد منهم ان يصل الى ما وصل اليه من الثروة والعظمة لو أنه قال في اول الامر ، « ان هذه الشركة تقوم على مبادىء جميلة وتستحق التقدم والنمو ، ولكن الانسان يجب أن يسعى وراء مصالحه الشخصية. فماذا سيصيبني من الربح ؟» لو كان كل واحد من مؤسسي هذه الشركة اتخذ مثل هذا الموقف في اول الامر فأنه قد كان انصرف الى عمل سواه يحصل منه على اجرة اكثر من الاجرة التي كان ينالها من الشركة ولكنه لم يكن قط في حياته اصاب النجاح العظيم الذي بلغ اليه بواسطة الشركة .

قال « هنري فورد » مرة وهو يحدث رفيقاً له عن اعماله :
« هل سبق لك ان فكرت ان الرجل الذي يشرع طريقه في حياته، ولا رغبة له سوى الحصول على المال ، قلما يحصل على الثروة الكبيرة ؟ » سؤال غريب جداً ، وقبل ان ينتظر هنري فورد جواب رفيقه زاد على سؤاله قائلاً ! « وقد يحصل مثل هذا الرجل على القليل من المال ، بضع عشرات الوف الريالات او مئات الالوف ، ولكنه الا ولن يستطيع ان يجمع ثروة كبيرة . ولكن ليشرع الانسان في عمل نافع يبذل قصاري جهده بأن يكون افضل مما يقوم به غيره ، ثم يبيعه من سواه ارخص مما سبق بيعه في الاسواق التجارية — ليقرر في ذاته ان يفعل هذا ، وليقف نفسه على عمله ، — وحينئذ تتدفق عليه الاموال تدفق السيل الجارف حتى انها تكاد تغمره اذا لم يتدارك امره بخير العناية .

« عند ما كنا نصنع النموذج الاول لاتوموبيلنا ، هل تظن اننا كنا نجد في طلب المال من وراء عملنا ؟ نعم كنا نفكر ان العمل اذا نجح سيعود علينا بالربح الكثير ، ولكن المال لم يكن الغاية الرئيسية من عملنا . بل انحصرت رغبتنا الرئيسية في عمل اتوموبيل رخيص بهذا المقدار حتى ان افقر عائلة في الولايات المتحدة تستطيع ان تشتريه وهكذا كنا نشتغل الصباح والظهر والليل ولم نكن نترك اعمالنا حتى يأخذ منا التعب كل مأخذ ونرغم ان نسير في الحال الى اسرتنا . وقد حدث لنا مرة في احدى الليالي وقد تعاظمت اتعابنا لدرجة لا تطاق

ولم يظهر امامنا بارق امل بالنجاح وكدنا نتخاصم احدنا مع الآخر من جراء ذلك . فقلت لرفقائي مبتسماً : « ان لنا من جميع اعمالنا تعزية واحدة على الاقل ايها الاصحاب . وهي انه ما من رجل يقدر أن يسرق هذا العمل منا ما لم يظهر استعداده للعمل باكثر جهد مما نعمل نحن . ولم نسمع حتى الآن بمن ثبت امام مصاعب الحياة وتسلق عقباتها بالصبر الجزيل كما فعلنا نحن . »

وماذا عناه « تيودور . ن . فايل » Theodore N. Vail عندما قال أنه لم يخرج من منزله سعياً وراء تحصيل المال سوى مرة واحدة في حياته ، ولكنه لم يحصل على بارة واحـدة في تلك المرة ، أما الاموال الكثيرة التي جمعها فقد حصل عليها من انخراطه في الاعمال الكبيرة التي كانت تستغرق كل أوقاته وجهوده فلا تبقي له مجالا للاهتمام بالمال ؛ والعمل الوحيد الذي أشار اليه هو سياحة قام بها الى أمريكا الجنوبية حيث وجد منجماً عظيماً ظهر له بعد الدرس أنه كثير النفع ، وما برحت أرباحه تتدفق اليه حتى الساعة . وقد اضطر للقيام بهذه السفرة بعد أن خسر جميع أمواله بسعيه الى ايجاد معمل كبير لتدفئة البيوت في مدينة بوسطن — ورائده الرغبة في توفير وسائل التدفئة للناس كما عمل مؤخراً على تسهيل سبل المواصلات بين العالم . ولكنه فشل في فكرة تدفئة الشعب في بوسطن ودفع ديونه من الارباح الطائلة التي جمعها من منجم أمريكا الجنوبية . ولكن ثروته الطائلة لم تكن نتيجة لهذا المنجم بل كانت نتيجة للعمل العظيم الذي

قام به بعد ذلك والذي سيذكر اسمه من جرائه الى الابد وهو أنشاؤه شركه التلفون والتلغراف الاميركية . وقد أنفق في سبيل هذا العمل العظيم كل ما كان يملكه « ألقى حياته كلها فيه » كما نقول نحن أو « خسر به حياته » كما يقول يسوع . ولذلك ردَّ له لقاء ثروته ثروة وعظمة وشهرة وخلوداً .

قال يسوع ، « من سخرك ميلاً ، فامش معه ميلين . »

وهو يعني بذلك ، « أفعل أكثر مما يطلب منك أو أفعل ضعفي ما يطاب منك . » وهي نصيحة مدهشة في عالم الاعمال . لانه ماذا ينتفع الانسان اذا كان يعمل ضعفي ما يقبض الاجرة على عمله والجواب أنه اذا لم يكن مجنوناً فانه ولا شك بالغ الى قنة النجاح ومقيم فيها سحابة عمره . أذكر أنني كنت مسافراً من شيكاغو الي نيويورك مرة بالقطار السريع المعروف باسم « توانتي سنتشوري ليمتد Twentieth Century Limitid . وكان موعد وصول القطار الى محطة «غراند سنترال في نيويورك الساعة التاسعة والدقيقة الاربعين بحيث يكون لدى المسافر متسع كاف من الوقت للنهوض من النوم وتناول طعام الصباح قبل الشروع في أعماله . وكان يسافر معي رفيقان عزيزان فقررنا أن نقضي الصباح بما نريد من الراحة والسرور فنهضنا من أسرتنا في الساعة الثامنة والربع ، وحلقنا ، ولبسنا ثيابنا وفي نصف ساعة كنا نسير في طريقنا الى القاطرة المعدة للطعام .

وفيما نحن سائرون مررنا باحدى الغرف الخصوصية في القطار فاذا بابها مفتوح ، فلم نتمالك عن النظر الى داخلها . ولشدة دهشتنا رأينا السرير الذي فيها قد رفع منها . وأمام نافذتها طاولة ممتلئة بالاوراق وعلى المقعد أمام الطاولة رجل مكب على القراءة والكتابة . وكانت صورة الرجل معروفة لدينا بفضل الجرائد اليومية التي أرتنا صورته مئات المرات . فقد تقلد منصب حاكمية نيويورك ، ثم صار قاضياً في محكمة التمييز العليا ، ثم كاتم أسرار الحكومة الأميركية ، ثم أحد المرشحين لرئاسة الجمهورية — وكان في تلك الساعة يشتغل بالمحاماة ويحصل نيفاً ومائة ألف دولار في السنة .

كنت ورفيقيّ شباناً في مقتبل العمر ؛ ولكن المستر (هيوز) الذي كان في الغرفة كان إذ ذاك كهلاً في منتصف العمر . وكنا فقراء غير معروفين خارج دوائرنا الضيقه المحدودة ، أما هو فكان غنياً ذاع صيته في جميع أنحاء العالم . وكنا نقوم بكل ما يطلب منا من الاعمال ولذلك نهضنا في الساعة الثامنة وربع رجاء أن نتناول طعامنا ونكون مستعدين في وقت وصول القطار الى نيويورك أن نذهب كل الى عمله . ولكن هذا الرجل ، الذي لم يكن يطلب منه عند التحقيق أن يقوم بعمل قط ، كان أكثر منا اجتهاداً وعملاً . ولذلك فكرت في ذاتي في تلك الساعة قائلاً ؛ « قد أدركت الآن سر عظمة « هيوز » — فهو يقوم بأكثر مما يطلب منه . »

كثيراً ما كنت أزور مكاتب المستر ج . ج . «مورغن» وشركاه

بعد الساعة السادسة مساء . وأنني ما برحت أذكر الوهم الذي كان عالقاً بذهني في تشخيص حالة مثل هذه الشركة المالية الكبرى — فكنت أعتقد أن الشركاء يأتون الى المكاتب في الحادية عشرة صباحاً في أوتومبيلاتهم الثمينة ، فيصدقون على الاتفاقيات المالية الكبرى بوضع أسمائهم عليها ثم يسيرون الى التمتع بافراح الحياة . ولكنني في الزيارات التي أشرت اليها سابقاً لم أر شيئاً من هذا ، فان المكاتب كانت مغلقة ، وكان المدراء والكتبة والخدام جميعاً قد تركوا البناية ولم يبق هنالك سوى الحراس وبعض الشركاء . وقد كان مكتب الشركاء منوراً فى كل ساعة من النهار والليل . أن واجبات العمل في المكتب تطلب من الجميع أن يسافروا ميلاً واحداً بداءته الساعة التاسعة صباحاً ونهايته الساعة الخامسة مساء . ولكن الشركاء كانوا يسافرون هذا الميل ويسافرون فوقه ميلاً ثانياً ، وقد فعلوا ذلك سحابة اقامتهم بأعمالهم ولذلك هم شركاء لانهم لا يقتصرون على عمل ما يطلب منهم فقط .

والى القراء الادباء مبدأ آخر من أصدق مبادىء العمل وأن ظهر أنه غير قابل للتنفيذ

تذكروا كلمات الرب يسوع حيث قال : « مغبوط هو العطاء أكثر من الاخذ . »

نحن مدينون بهذه الكلمات الخالدة للرسول بولس . فهي غير واردة في الاناجيل الاربعة . فقد نساها متى ومرقص ولوقا ويوحنا

وقد يكون متى العشار فكر في سره قائلا : « جميل جداً أن نتحدث بالعطاء عوضاً عن الاخذ ، وقد يكون هذا المبدأ عاملاً في الدين ولكنه بالحقيقة لا يمكن تنفيذه في وظيفة جمع الاعشار . ولعل يوحنا قال في ذاته عند ما سمعه ، « أنه بالحقيقه فكر جميل وعاطفة نبيلة ، ولكنه لا يمكن العمل به في مهنة صيد السمك . » نعم قد يكون الانجيليون سمعوا هذا القول من المعلم ولكنهم حسبوه خطأ ، أو أنهم لم يثقوا بانه ورد هكذا من فم الرب يسوع . ولذلك أعرضوا عن تدوينه في كتبهم . ولكن الرسول بولس لم يفعل ذلك . فانه ترك مركزه العظيم الذي كان يشغله في قومه ووقف نفسه على خدمة الجليلي المسكين ، وكان أميناً في عمله الذي عرف قيمته أكثر من جميع الرسل ولذلك قام بما لم يقوموا به من الأعمال بأجمعهم . وقد سمع هذه الكلمات فأدرك بثاقب فكره معناها الحقيقي ولذلك دونها في رسائله الخالدة .

فهل هي كلمات فارغة ؟ وهل تعود بالخراب على عمل صاحبها الذي يؤمن بها ؟ وهل يكون الرجل الذي يتخذها دستوراً له في حياته مجنوناً ؟ تحدثت مرة مع المؤرخ الكبير « هـ . ج . ولز » H. J. wells بعد أن صدر كتابه المشهور « خلاصة التاريخ ، » فسألته قائلاً :

« قد وقفت بالحقيقة على جبل عال ونظرت الى مشاهد الاجيال الغابرة نظرة الناقد البصير . قد رأيت القواد والملوك ، والامراء والانبياء والعلماء والرواد المغامرين ، وذوي الملايين وأصحاب الاحلام —

وكل ملايين العناصر الانسانية التي عاشت وأحبت وجاهدت في ساعتها الصغيرة على الارض . ففي هـذه الجيوش الجرارة ما هي الرؤوس المرتفعة فوق الجميع ؟ وبين جميع الذين حاربوا وراء الشهرة وحصلوا عليها بالفعل من هم في رأيك الرجال الستة الذين يستحقون أن نلقبهم بالعظماء عن جدارة كاملة ؟ »

وبعد أعمل المؤرخ الكبير فكره في سؤالي يومين كاملين عاد الي فى اليوم الثالث وبيده قائمة كتب عليها ستة أسماء ، وأمام كل اسم الاسباب التي تحمله الى الاعتقاد بعظمته . وهي بالحقيقة قائمة ممتازة وها هي كما يأتى :

يسوع الناصري

بوذا

أسوكا (حاكم ومعلم هندي حكم في شمال الهند من ٢٢٣ ق . م — ٢٥٥)

اريسطو

روجر باكون

ابراهيم لنكلن

فكر في الوف الامبراطرة الذين خاضوا غمرات الحروب في طلب الشهرة ؛ واعلنوا أنفسهم خالدين بواسطة التماثيل المصنوعة من القرميد والحجارة ورغماً عن ذلك ليس في القائمة سوى امبراطور واحد وهو «اسوكا» Asoka ؛ ولم يرد اسمه في القائمة بسبب حروبه وانتصاراته ،

بل لانه بطوعه واختياره اعرض عن الحروب ، بعد أن رافقه النصر في جميعها ، ووقف نفسه على السعي وراء راحة رعاياه وسعادتهم. فكر في الجماهير الذين جاهدوا في سبيل الثروة ، والجمال ، واعرضوا عن عواطف الاريحية في قلوبهم مستسلمين بكليتهم للجشع والطمع والشح والهم والغم. وليس في القائمة اسم واحد منهم غير «أسوكا» الذي كان غنياً عظيماً ولكنه أعطى ثروته للمساكين. فمن جلس على عرش رومية ، عند ما كان يسوع الناصري معلقاً على الصليب ؟ ومن حكم في جيوش الفرس عندما كان اريسطو يفكر ويعلم ؟ ومن كان ملك انجلترا عند ما كان « روجر باكون » Roger Bacon يضع اساس البحث العلمي الحديث ؟

« العظماء والغوغاء ترولون ، والقواد والملوك يذهبون ولا يوجدون »

فاذا جاء المؤرخ الى الحقل الذي تسابقوا فيه على الجوائز ، يفتش عن القوة التي ثبتت راسخة على ممر العصور ، فهو لا يجد سوى رسالة معلم ، وحلم عالم ، ورؤيا حكيم . ولذلك قال « المستر ولز » بطريقته البليغة : « أن هؤلاء الرجال الستة قدوقفوا على زوايا التاريخ . فكانت جميع حوادثه بهم ولهم ومن أجلهم . وقد عملت حياتهم على تنقية مجاري الفكر وانماء بساتين الحرية . وهم لم يأخذوا الا القليل من العالم ولكنهم تركوا له الكثير. أنهم لم يأخذوا ولكنهم أعطوا ، ولذلك نالوا بعطائهم ما لهم من النفوذ في العالم

حتى اليوم وما سيظل لهم الى منتهى الدهور . »

في بلادنا ، « مونتيسيلو ، فرجينيا ، » قبر كبير لسياسي أميركي قدير . وقد كان في حياته كاتم أسرار الحكومة المركزية ، وسفيرها الى فرانسا ، ثم صار رئيساً للولايات المتحدة ؛ ولكنك لا تجد أقل أشارة الى هذه المناصب الكبيره على قبره . بل تقرأ هنالك ما يأتي :

هنا يضطجع

توماس جفرسون

واضع

اعلان الاستقلال الاميركي ،

واعلان الحرية الدينية في فرجينيا ،

وأبو جامعة فرجينيا .

أن جميع المراكز الكبيرة التي أشغلها في حياته منسية على حجر قبره ، وهي قد تصير الى لا شيء في اكثر الاذهان—ما عدا أذهان المؤرخين ؛ فهو لم يشأ أن يذكره الناس الا بما كتب أعلاه على قبره . وقد عمل أهله بوصيته .

ومن أقوال « أمرسون » في مقالاته الفريدة ما يأتي في الموضوع الذي نحن في صدده ، قال : تأمل كيف تضنى عامة الناس أفكارها بما يسير بها الى القبور المجهولة ؛ في حين أن هنا وهنالك كثيراً ما ترى نفوساً تخسر ذاتها لتحظى بالخلود . » فكر جميل تعبر عنه ألفاظ جميلة : ولكن يسوع فكر به قبل « امرسون »

ومن جميع ما تقدم نستخلص فلسفة يسوع في العمل كما يأتي :

(١) : كل من أراد أن يكون عظيما يجب أن يقدم للعالم خدمة عظيمة .

(٢) : كل من يطمح الى أن يجد نفسه على قنة الجبل يجب أن يخسر نفسه في الوادي .

(٣) : انما الاجر كل الاجر لذلك الذي يسافر الميل الثاني الذي لا يطلبه منه أحد .

ولكن الاسخريوطي سخر بجميع هذه المبادىء . وهو لم يكن رديئاً بقلبه . ولكنه أبتلى بالصغارة التي يبتلي بها صغار رجال الاعمال . فقد كان طماعاً يفاخر بطمعه ، وكان شديد الحرص على الربح القليل ولذلك خسر الربح الكثير . ولا يندّ عن ذهن القارىء أن مركز أمانة الصندوق الذي كان يشغله يهوذا لم يكن بالوظيفة الهينة التي يستطيع الخياليون أن يقوموا بأعبائها . فقد كان الكيس بيده ولم يكن يخرج منه بارة واحدة الا بعد أن تخرج معها حرارة يده القابضة عليها بكل ما أوتيه من قوة . وعندما أفرغت المرأة الشكور جرة الطيب الثمين على قدمي يسوع فكر بقية التلاميذ أنها صنعت صنيعاً حسناً ، ولكن يهوذا عرف اكثر منهم ، ولذلك قال في ذاته ، « أن هذا تبذير في غير موضعه. » أما المواضيع التي كان التلاميذ الاحدى عشر يتحدثون بها من مثل « العروش » « والممالك » « والانتصارات وأشباهها فأنها لم تشغل زاوية صغيرة من فكره قط ؛ لانه كان قادراً

على عمل واحد وهو جمع المال والاحتفاظ به . ولذلك عقد اتفاقه الخصوصي مع رؤساء الكهنة ، بعد أن عرف جيداً ان يسوع سيلقى القبض عليه لانه ابى الاصغاء الى نصائح محبيه ومريديه الاّ يعلم في أورشليم . فقال الاسخريوطي في ذاته ، « سأسلم الرجل وأقبض حصتي ثم استعفي من العمل بأسره . وماذا يضرني لو فعلت ذلك والرجل سيموت أن لم يكن بواسطتي فبواسطة أخرى ؟ » أما يسوع فقد سبق وقال ، « فاذا رفعت (على الصليب ؛ أو بعبارة أخرى اذا خسرت حياتي) سأرفع جميع الناس اليّ . » وهكذا ترى أن كل واحد قرر لذاته القرار الذي تهواه نفسه ، فنال المكافأة التي إستحقها عمله .

قد أوردنا في ما مضى أقوال فريق من عظماء الناجحين في الحياة ، ولكن المبادىء الاولية التي وضعها يسوع للعمل الانساني على الارض تنطبق على كل فرع من فروع الاعمال الانسانية. لان النجاح الحقيقي لا يتأيد في العالم ما لم نطرح عنا الرأي الكاذب القائل بأن العمل العالمي هو غير العمل الديني . قد تعلمنا منذ حداثتنا أن عمل الانسان اليومي دليل على أنانيته وطمعه ، ولكن الوقت الذي ينفقه في أعمال الكنيسة والخدمة العمومية هو دون غيره العمل المقدس في حياته على الارض سل أية عشرة شئت من المسيحيين عن معنى قول يسوع « عمل أبي » وأنت ولا شك واجد أن تسعة من العشرة يقولون لك أنه عني بذلك « الوعظ والتبشير . » ولكن تفسير كلماته بهذه الصورة

الضيقة يجرد حياته من أهميتها الحقيقية . فهو لم يأت الى العالم للوعظ والتبشير ؛ كلا ، ولم يأت للتعليم والشفاء . فكل هذه فروع بسيطة في عمل أبيه ، ولكن العمل نفسه أعظم وأوسع منها بما لا حد له . لان الحياة الانسانية اذا كان لها من قيمة البتة فهي هذه — أن الله قد أعد هذه الارض ووضع فيها الانسان للقيام بتجربة عملية كبرى بما أوتيه من السلطة على كل ما في الوجود . وهو يواصل العناية بالسير بالناس في مراقي الكمال ، وجعلهم أرفع من الظروف وأقدر من القضاء والقدر . واذا نجحت هذه التجربة العملية فأن نجاحها يشمل جميع حاجات الناس على السواء . فالمجتمع البشري يحتاج الى الطعام واللباس والمنازل ووسائل النقل كما يحتاج الى الوعظ والتعليم والشفاء من أسقامه . ولذلك كانت جميع أعمال العالم بأسره تؤلف عمل أبيه الذي جاء للقيام به . كل نوع من العمل هو عبادة ؛ كل خدمة هي عند التحقيق صلاة . وكل من يعمل بأخلاص وأمانة في أي نوع من الاعمال النافعة هو بالحقيقة شريك لله في عمله العظيم الذي شرع فيه منذ البدأ وبرأ الانسان ليعاونه على القيام به .

الكلام في النجاح شيء والحصول على النجاح شيء آخر . فقد تكلم يسوع عن التيجان ولكنه مات على الصليب . وتكلم عن ملكوته ، ولكنه قضى أجله بين تعييرات أعدائه وسخريتهم به . وقد قال كاتب الرسالة الى العبرانيين « أنه كان في جميع الامور مجرباً مثلنا . » وقد قرأنا هذه الآية ، وسمعناها تتلى أمامنا ألوف المرات

ولكننا لم نؤمن بها قط كما تدل على ذلك أعمالنا وتصرفاتنا . . . .
لان النظرية التي قدمها لنا علماء الكلام في حقيقة يسوع تجعل الايمان
بهذه الآية امراً مستحيلا .

أن تحرير العقل من قيود العقائد القديمة عمل شاق جداً . ولكن
هذا لا يثنينا عن السعي وراء ذلك . فنحن تواقون الى الاطلاع على
جميع الحقائق التي رافقت حياة المعلم الأعظم الذي بلغ الى أسمى قنن
النجاح ــ وها نحن الآن نورد الاخطار والازمات التي أحاقت بنجاحه.

فهو لم يكن قط واثقاً بالجهة التي يسير اليها عندما ترك آلات
النجارة في الناصرة وهجر الدكان التي نشأ وترعرع فيها ــ لانه كما
يقول الرسول « كان في جميع الامور مجرباً مثلنا » وكل انسان
على الارض يجب أن يغامر في حياته كانه يسير في بحر لا يعرف أوله
من آخره . ولكن قوة عظيمة في داخله كانت تدفع به الى الامام
وقد حملت مثل هذه القوة الكثيرين من أولاد القرى الصغيرة الى
الاعتقاد بأن في العالم العظيم مركزاً سامياً ينتظرهم وراء التلال . وقد
ذهب في الحال الى يوحنا ليعتمد منه وظل بعد العمادة وقتاً غير قليل
متأثراً بشخصية يوحنا ومثاله . ولذلك اقتفى آثاره وذهب الى البرية
وهنالك صادف العقبة الاولى في جهاده العظيم . وبعد أن ذللها من
أمامه وضع لنفسه برنامجاً خاصاً به ليعمل بموجبه ؛ فقد عرف جيداً
أن الامساك والتهديد لم يكونا من خصائص عمله .

وقد كان النجاح الاول الذي صادفه فائقاً حدود التصور .

لانه استطاع أن يطهر الهيكل من الصيارفة والتجار والكهان الذين خرجوا من أمامه مذعورين ولذلك أعجب به الشعب الاعجاب كله وخرجوا يترنمون بذكر اسمه . وعند ما ترك الهيكل بعد انتهاء العيد ورجع الى بلاده وجد أن شهرته سبقته الى تلك الانحاء . فاجتمعت الجماهير في الحال لسماع كلامه ؛ وكانت أخبار شفائه للمرضى تسير أمامه حيث سار . حينئذ شرع في وضع الصورة الحقيقية لعمله . فعزم عزماً أكيداً أن يرجع للشعب احترامه لذاته ، ويقضي على سلطان الطقوس والفرائض البلهاء ، ويوجد تعليمه الجديد المجيد في أبوة الله وأخوة البشر . وقد ظهر له كل ذلك سهلا طبيعياً في أشعة شمس الجليل بين جماهير المعجبين به والمتزاحمين للاصغاء الى تعاليمه وقد كان العام الاول أو العام والنصف من عمله العمومي ممتلئاً بثمرات الفوز المبين والشهرة النقية الصحيحة . ولم تظهر في تلك المدة غيمة واحدة سوداء في سماء حياته .

بيد أن الزعماء والرؤساء الذين عاشوا فيأورشليم في ذلك الحين لم يرضوا عن تعاليمه بأسرها لانها كانت تضرب على وتر تجريدهم من امتيازاتهم وسلطانهم . ولذلك لم يقفوا تجاه ارائه وقفة المتفرج الغير المكترث بها . فعمدوا في الحال بعد حادثة الهيكل المشهورة الى ارسال جواسيسهم في أثره لمراقبة جميع أعماله وموافاتهم بكل صغيرة وكبيرة منها ، وبذلوا كل ما في وسعهم من الجهود لتحويل الشعب عنه . ولكنه خيل اليه في أول الامر أنه سيربح أعداءه أنفسهم بما

أودع في قلبه من الاخلاص في الخدمة — ولذلك كان يعتقد أن رسالته سائرة بقدم السرعة الى النجاح الكامل . ولكن هذا الرجاء ما لبث أن تضاءل نوره في قلبه . فان المقاومة شرعت في الظهور أمامه في كل موقف من مواقفه . ولذلك وثق أخيراً بأنه مواجه أحد أمرين — إما الثبات حتى الموت أو الاستسلام لمشيئة أعدائه. وهكذا نراه الآن يواجه الازمة الثانية الصعبة في حياته صابراً شجاعاً .

كان يجتاز البحيرة في أحد الايام بسفينة صغيرة تخلصاً من الجموع الذين كانوا يزاحمونه ؛ ولكنه لم يستطع التخلص منهم . لانهم ركضوا الى جانب البحيرة الآخرة كانوا يجمعون في طريقهم من يجدونه من اخوانهم فذهبوا جميعاً وجلسوا يترقبون وصوله الى المرفأ — وكانوا أكثر من خمسة آلاف نسمة . كان يسوع تعباً ، وكان يجد في طلب فرصة للراحة والتفكير . ولكنه رأى الجموع مزدحمة تنتظره وعند ما نظر اليهم « تحنن عليهم . » فنزل الى البر وجلس بينهم وطفق يعلمهم النهار بطوله . واذا ضجر التلاميذ أخيراً من تلك الجماهير الكثيرة جاؤوا اليه وطلبوا أن يصرف الجموع .

فأجابهم يسوع ، « وكيف نصرفهم من غير أن نطعمهم بعد أن قاموا بهذه السفرة الطويلة لمشاهدتنا ؟ »

فنظر اليه التلاميذ مندهلين وقالوا ، « وكيف نستطيع أن نطعم جمهوراً كهذا ؟ فليس لنا مال لمشترى الطعام ، وهب أن في الصندوق قليلاً من المال فان الجمع يربو على الخمسة آلاف نسمة ! »

فلم يصغ يسوع الى قولهم .

وقال لهم ، « اجلسوا الجموع ، وهاتوا اليّ ما تستطيعون أن تجمعوه من الطعام الذي عندكم ، »

فنعل التلاميذ كما أمرهم معلمهم والشك يملأ قلوبهم بقدرته على إطعام كل هذا الشعب . فأجلسوهم زمرة زمرة . مئة مئة . وخمسين خمسين . وأحضروا الطعام الذي عندهم فأذا هو خمسة أرغفة وسمكتان ووضعوه أمامه . فأخذه بيديه ونظر الى السماء ، وبارك ، وكسر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا اليهم ، وقسم السمكتين على الجميع فأكلوا جميعهم وشبعوا . »

أن ماحدث في تلك اللحظة عندما وضعوا الأرغفة والسمكتين أمامه هو سر غامض لا نستطيع ادراكه ؛ ولكننا نعرف بكل تأكيد ما حدث بعد ذلك : وهو بالحقيقة الآية التي كان الشعب يتشوق اليها بفارغ الصبر ! فقد عال موسى آباءهم بالمن في البرية ؛ وجاء يسوع فنظر أمامهم الى السماء فأشبع مجاعتهم . ولأجل هذا وثقوا بأنه هو ابن داوود الذي طالما ترقب آباءهم وروده ليحررهم من ظلم السلطان الروماني ويسترجع عرش أبيه داود في أورشليم !

ولذلك حملوا هذه البشرى بفرح عظيم ونشروها في صفوفهم صارخين أن يوم الخلاص قد دنا ؛ وقد حانت الساعة لسقوط السلطة الرومانية في المدينة المقدسة . وكانوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم متكئون زمراً زمراً ، خمسين خمسين ، ومئة مئة ، وهم يكادون

لا يصدقون أن مثل هذا النظام يسري اليهم . ولذلك بلغ التحمس بهم أن هبوا دفعة واحدة حاسبين أنهم يؤلفون جيشاً أكبر من حاميات أورشليم وفي وسعه أن يحتل البلاد من الغاصبين الطغاة — هذا بقطع النظر عن الالوف من الجماهير الذين ينضمون اليهم من سائر أقطار البلاد . فهم الآن خمسة آلاف ولكنهم قادرون أن يصيروا في بضعة أيام خمسين أومئة الف نسمة . وهكذا نمت حماستهم حتى نهضوا دفعة واحدة وساروا الى التلة التي يجلس عليها يسوع وهم يهتفون له بصوت واحد ويبالغون في أظهار شجاعتهم ليثيروا نيران الطموح في قلبه —

وحينئذ —

أدرك يسوع غايتهم ، لانه كان سحابة اقامتهم حواليه مثقل الكاهل بالافكار المتضاربة التي كانت تختلج في أعماق فكره بقوة العاصفة الهوجاء . ولماذا لا يقبل دعوتهم ؟ ولماذا لا يعلن نفسه ملكاً عليهم ؟ أن مثل هذا العمل يقضي ولا شك على فكرته الأولى — ويجرده من زعامته الروحية . ولكن قد يستطيع أن يحتفظ لنفسه بالزعامتين معاً . فقد كان سليمان ملكا ، وكان في الوقت نفسه زعيما روحياً عظيما ؛ وكان داود ملكا ، وقد تمكن مع ذلك من كتابة أبلغ ترانيم الامة بمزاميره الخالدة . وهو عند التحقيق أوفر عفة من داود وأكثر حكمة من سليمان — فلماذا لا يقدم على العمل الذي أمامه ؟

كانت الصورة جميلة أمام ذهن يسوع ولم ير بشرى مثلها قط

في حياته . ولكن المعلم الاكبر لم يقف أمامها سوى لحظة واحدة — لانه رأى في الحال الصورة الثانية — التي بسطت أمامه حالة ملايين البؤساء من أخوته وأخواته العميان الذين يقودهم العميان فيسقطون جميعًا في هاوية التقليد البليد والطقس العقيم . وتمثلت أمامه الاجيال العديدة من المولودين والمائتين في العبودية الروحية . التي لم يكن في الوجود من قوة تتغلب عليها غير قوة الحق الذي جاء لاعلانه في العالم . فاذا أصغى الى طلب الجماهير المزدحمة حواليه وقادهم ثائرًا على العرش الروماني وعاملاً على تحرير وطنه من عبودية الغرباء فكأنه يعمل بيده على القاء نفسه في الاخطار والقضاء على رسالته المحبوبة قضاء مبرمًا . ولم يكن خوفه منحصرًا في الفشل فحسب بل كان يحسب نجاحه في ثورته أكثر خطرًا من فشله . لان صيرورته ملكًا على اليهود تضطره الى أنفاق حياته بأسرها للدفاع عن عرشه ومملكته، وفي ذلك ما فيه من سفك الدماء البريئة والانشغال عن تأدية رسالته فاذا عاش فانه لا يستطيع أن يقدم لشعبه سوى مثال ضئيل للحياة الوطنية ؛ واذا مات فانه يتركهم معرضين لعبودية ثانية من الرومان تكون أكثر شرًا من العبودية الاولى . والحق الذي جاء لاعلانه على الارض ، الحق القادر وحده على تحرير جميع المستعبدين على ممر الاجيال والقرون ، يستبدل بمثل هذه الحالة بلمعان تاج زائل واسم باطل . رأى يسوع كل هذا بلحظة واحدة ولذلك انتهى الى القرار الذي أراد . ومع أن ثورة الجموع كانت تزداد هيجانًا حوله

فانه أعطى تلاميذه بضعة أوامر وانصرف من بينهم .

وقد عبر الانجيل عن هذا النص المبين ببضع كلمات :

« ولما عرف يسوع أنهم يهمون بالمجيء اليه ليأخذوه عنوة ويجعلوه ملكاً عليهم ، انصرف ثانياً الى الجبل وحده . »

في مثل هذه الساعة الحرجة أظهر يسوع حقه الكامل بأن يكون شريكاً صامتاً في كل عمل من الأعمال الحديثة ؛ وأن يجلس الى رأس طاولة المدراء والمديرين لجميع الاعمال الناجحة. فهو ليس بالخيالي في أقواله ، بل انما يعبر بالالفاظ عما عرفه واختبره بنفسه . فاذا قال أن عمل الانسان أوفر قيمة من جميع الوظائف والمراكز فهو ذو حق على التصريح بمثل هذا القول . لانه رفض أعظم المراكز التي يتوق اليها البشر من جراء عمله . واذا قال أن في الحياة كنوزاً أثمن من الثروة ويجب السعي اليها ، فلا يشك أحد بكلامه . فقد وضعت أمامه ثروة أمة بأسرها فرفضها من أجل الحق الذي وقف حياته على اعلانه . وليس شك في أنه كان خيالياً ، ولكن ما من مبدأ عملي في العالم أقرب الى التنفيذ من آرائه وخيالاته . ونحن نستطيع أن نستخلص من أقواله ما يأتي : « في العالم نجاح هو أعظم من الثروة أو المراكز الكبيرة ، وهو يأتي من جعل عملك وسيلة للخدمة العظيمة ، وسبباً لراحة اخوانك واخواتك في الانسانية وسعادتهم . هذا هو عملي وعمل أبي ونحن في حاجة اليك للقيام به . »

وقد أورد مرة مثلاً في العمل يجب أن يطبع في كل سنة في جميع المجلات التجارية والجرائد اليومية والكتب العمومية وهو يبحث في رجل غني أخصبت كورته الى حد لم يكن يحلم به من ذي قبل. وقد أغلت له أرضه كثيراً. حتى أنه فكر في نفسه قائلاً : « ماذا أصنع ، فأنه ليس لي موضع أخزن فيه غلالي ؟ »

ثم قال : « أصنع هذا ؛ اهدم اهرائي وابني اكبر منها ؛ واخزن هناك جميع ارزاقي وخيراتي . »

واقول لنفسي ، « يا نفس ، أن لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة ؛ فاستريحي ، وكلي ، واشربي وتنعمي . »

فقال له الله ، « يا جاهل ، في هذه الليلة تطلب نفسك منك. »

ان هذا الجاهل لم يحسب عمله سوى وسيلة للهرب من العمل . ولذلك جمع ثروته ، وحال دون أية عاطفة من عواطف الاريحية في قلبه ؛ وانفق أمواله على ملذاته الدنيئة من غير ان يعرف لذة العطاء والاحسان للمعوزين ؛ وقد ضحى فرح معيشته على مذبح انانيته ورضاه بما كان سائراً اليه من الثروة البالغة في المستقبل . ولكن الدهر هزأ به . ومع انه خيل اليه انه قد اتخذ الحيطة ضد جميع طوارىء الايام . فأن الحادثة الواحدة التي قلما يحسب لها الانسان حساباً قد جاءت في ساعة لم يكن ينتظرها كاللص في الليل فوجدته لاهياً بأهرائه وخيراته غير مستعد لاستقبالها . . . .

ومع هذا المثل الذي قدمه يسوع لرجال العمل يجب ان تنشر

حادثة ثانية وهي فاجعة بنفسها — ونحن نعني بها حادثة « المنزل » في بيت لحم .

فأن ام يسوع طرقت بابه في المساء ؛ فلم يفتح لها لانه لم يكن فيه موضع . وهو لو فعل ذلك لحدثت فيه اعظم حادثة في التاريخ الانساني — ولكنه خسرها

ولماذا كان ذلك؟ لماذا ولد يسوع في مذود البهائم ؟ اهل كان سكان المنزل الذي طرقت أمه بابه ارديا اشراراً؟ كلا. ولكن المنزل كان ممتلئاً بالضيوف وهذا هو السبب كله . فأن كل غرفة فيه كان يشغلها الزوار الذين جاؤوا من سائر انحاء البلاد لقضاء اعمالهم فى المدينة فى تلك الايام

لم يكن لهما « موضع » فى « المنزل »
وكثيراً ما تكون حياة الناس مثل هذا المنزل .

فكم هنالك من اب يتفطر قلبه حزناً لان ابنه احمق . ولكنه يعرف فى اعماق قلبه انه هو المخطيء دون ابنه. لانه اعرض عن تربيته التربية الحق فى عهد طفولته وصبوته . ولم ينتج هذا الاعراض عن بغضه لابنه ؛ بل عن وفرة اشغاله . فلم يكن فى حياته « موضع » لتربية ابنه ، ولذلك نشأ ابنه على الحماقة والجنون

وكم هنالك من الرجال الذين يخسرون صحتهم ؛ الرجال الذين تفارقهم الرغبة فى القراءة والعلوم والفنون . الرجال الذين لا يهتمون بشيء خارج عن دائرة أعمالهم وارباحهم المادية ولذلك تمسى حياتهم

حبوباً من الحنطة بين حجري رحى الحياة التي تسحقهم سحقاً .

فهم في سعيهم الحثيث وراء النجاح يخسرون نجاحهم الحقيقي . وهم بعدم الاعراض عن الاعتناء بنفوسهم لحظة قط يخسرون في النهاية نفوسهم بما ملكت . ليست هذه عقيدة يسوع في الحياة الحق . فأن الذي رفض أن يترك عمله و يصير ملكاً ، لم يشغله عمله قط عن العناية بالمرضى والاصدقاء والاولاد الصغار . لانه لم ينس سحابة حياته أن أمه وقفت مرة على عتبة « منزل » ولم يكن لها فيه « موضع » تأوى اليه .

عتبة المنزل الصغير في بيت لحم . المنزل الذي كان ممتلئاً بهذا المقدار حتى أن أعظم حوادث التاريخ طرقت بابه ولم تجد سبيلاً للدخول اليه .

الفصل السابع

المعلم

ها قد بلغنا الى النهاية : الى التجربة الاخيرة في حياة الرجل —

كيف يحتمل فشله ؟

كيف يموت ؟

كان فوز يسوع في عمله على الارض في السنتين الاولى والثانية

محفوفاً بالنجاح ودليلاً على أنه سيكون له ما يريد في العالم . وقد كان هو نفسه واثقاً كل الثقة بفوزه .

أوضحنا في الفصول السابقة النجاح العجيب الذي أصابه يسوع في بداءة عمله . وراقبنا الجموع يتبعونه في ساحة المدينة ، وسمعنا أصوات التهليل تحييه بعد انتصاره في الهيكل ، وأصغينا الى أصوات الشكر التي كان المرضى الذين شفاهم يعبرون بها عن عواطف قلوبهم نحوه. وكانت أخبار انتصاراته تسير أمامه حيثما صار ولذلك كان الناس يتسابقون الى اكرامه وقبوله ضيفاً محترماً في بيوتهم ، وكانت محبته تسري في قلوب الجميع حتى أن كل شيء كان مستطاعاً له ، ولماذا لا يكون ذلك ؟ فأنه اذا كان الذين يقبلون رسالته يرتفعون ، ويصيرون أبناء لله ، وورثة الحياة الابدية ، أفلا يكون كل من يعارضه ويرفضه جاهلاً عنيداً ؟ كانت رسالته تحمل الحق للعالم والحق يعلو ولا يعلى عليه .

وكل من يقرأ ترجمته بأمعان وترو يرى الاخلاص متدفقاً من كل حركة أو كلمة فيها تدفق الينبوع الفياض . فقد كان في ساعات شركته مع أبيه يقف أمام الخالق وجهاً لوجه ، ويشعر ببنوته للآب ، ويعرف أنه قادر أن يرفع قلوب الناس بما لم يقدر أن يفعله غيره على الارض . وكانت المعرفة تملأ قلبه بالوجد والافتتان ، ولذلك كان يصرخ قائلاً : « أنا هو الطريق والحق والحياة ، » ويدعو أحبائه ليحرروا ذواتهم ، ويطرحوا عنهم أحمالهم ويضعوها على كتفيه ،

وأن يزدادوا ايمانًا ، وفرحًا ، وثقة بما يعطيهم الرب . وكان الذين يصغون اليه في تلك الايام يدهشون لقوته العجيبة. حتى أن المعارضين أنفسهم كانوا يعجبون به ويقولون : « لم يتكلم انسان مثل هذا قط . » أما الجماهير من الشعب فقد بلغ انشغافهم به ان هجموا مرة يريدون أن يحملوه بالقوة ويجعلوه ملكاً

ولكن هذا النجاح العظيم لم يطل عهده بل عقبه فشل مظلم .

فأن مدينته التي نشأ وترعرع فيها سبقت الجميع الى الثورة عليه. تصور أيها القاريء الاديب ، اذا شئت ، الحماسة التي قرر بها زيارته لاهله وانسبائه . كانت الناصرة مدينة صغيرة ، وكانت محتقرة في جميع انحاء البلاد يهزأ بها وبسكانها كل الناس فهي لم تقدم للعالم رجلاً عظيماً قط ، ولم تحدث فيها حادثة واحدة من حوادث التاريخ المجيدة . وقد عرف يسوع كل هذا . وكان يعرف شوارع الناصرة كما يعرف ابنائها واحداً واحداً . وعندما شفى مريضًا في كفرناحوم، فرح جداً بمجرد الافتكار بأن هـذه الحادثة ستصل اخبارها الى الناصرة . وعند ما طهر الهيكل من اللصوص فرح ايضًا قائلا في ذاته ان الشهرة التي حصل عليهافي اورشليم ستسير امامه الى الناصرة. وكان الناس يدعونه « يسوع الناصري ، » جامعين بين اسمه والناصرة . فقد رفع المدينة الصغيرة من حقارتها واعد لها مكانًا مكرمًا في العالم . ولذلك عزم على زيارتها وهو في اوج مجده .

فهل وصل يسوع عند المساء ومن غير ان يشعر به احدصار في

الشوارع المظلمة الى بيت امه ؛ ولعل امه كانت في المطبخ اذ ذاك ، وعندما سمعت وقع خطواته خارج الباب ، عرفته في الحال فركضت وطوقت عنقه بذراعيها .

فصرخت ، وهي تقبله ولا تشبع من النظر الى عينيه المشرقتين، قائلة : «يسوع ، يسوع ، ابني ، ابني ! قد رجعت الينا ! »

وعندما سمع اخوته واخواته ذلك ركضوا من سائر انحاء البيت ليشاهدوه ، لان جميع انواع الاخبار كانت تأتي الى الناصرة عنه مما لم يكن قابلا للتصديق . ولذلك كان الثرثارون في المدينة يوقفونهم في كل يوم في الشوارع و يسألونهم اذا كانوا استلموا رسالة او خبراً من اخيهم . وكانوا يهزأون بهم قائلين : « تدل الاخبار التي تشيع بين الناس انه يقوم بأعمال عظيمة ! فنرجو الا يتطوح فيقود نفسه الى التهلكة . » وكانوا يقولون كل هذا بلهجة تنم عن الحسد والرغبة في ان يتطوح و يقود نفسه الى التهلكة !

وكان اخوته يقعون في وجه الهازئين به ويدفعون حججهم بالبراهين الناصعة مفاخرين بأخيهم. وكانوا يعتقدون انه بالحقيقة يقوم بأعمال عظيمة ، ولا أثر للمبالغة في الاخبار التي كانت تصل اليهم . وكانوا يتوقون من صميم قلوبهم ان يرجع يسوع مرة الى الناصرة ، و يظهر فيها مجده ، فيرى الكافرون اي منقلب ينقلبون و يتمنوا لو انهم آمنوا به. وها قدرجع أخيراً ، ممتعاً بالصحة والثقة الكاملة بعمله؛ ولكن منظره لم يتغير عن ذي قبل . فقد شعروا بأنه لم يكن كما خيل

اليهم انه سيكون. لانهم كانوا يتوقعون ان يروه اكبر مما هو، مرتديًا أفخر الملابس، ومتشحًا بحلة أو شارة خاصة تظهر سلطانه . . . . ولكنهم لم يظهروا شيئًا من ذلك، بل كانوا يطرئون أعماله المجيدة ويسألونه عن حياته فى غيابه عنهم وهم يخفون شكوكهم الكثيرة .

ولكن أمه قاطعت أحاديثهم بقولها ليسوع، « أنت ولا شك تعب يا ابنى، فأذهب الى فراشك با كراً، لان الشعب باسره يود أن يراك ويسمعك في المجمع غداً . »

وهكذا مضى يسوع الى غرفته القديمة وفراشه العزيز . وكان يفكر في ذاته قائلا أن الاهل والانسباء ليسوا كما خيل اليه قبلا . فقد أحبوه؛ وافتخروا به؛ ولكنهم شكوا — وأن لم يظهروا شكوكهم، فأنها لم تحجب عن بصيرته الحادة . وكانوا يخافون من نتيجة الاجتماع في الغد .

وعند الصباح نهض مستريحًا وعلى أتم الاستعداد للعمل . فجاء بعض الجيران الى البيت بعد طعام الصباح يسامون عليه، لان خبر وصوله انتشر بسرعة في جميع أنحاء المدينة الصغيرة . وعندما وصل مع أمه الى باب المجمع كان ينتظرهما الجمع خارجًا ليرحب بهما . فحياهم يسوع وردوا له التحية بالاحترام والتطفل وساروا للحال وراءه جماعات جماعات حتى امتلأ المجمع الى خارج الابواب. وكانت الاعناق تتطاول لرؤيته والجميع يتسارون بعضهم مع بعض في شأنه . أما هو فسار تواً الى صدر القاعة، وأخذ سفر أشعياء النبي، ثم التفت الى

الجمع وحياهم باسماً .

وفي تلك اللحظة فارقته جميع تصوراته السابقة . فعوضا عن الوجوه المبتسمة الفرحة الراغبة في الفهم والايمان رأى أمامه وجوها كالحة لا ترتسم عليها سوى أمائر الكفر والالحاد . وكانت العجوز جارته التي عزم على شفائها جالسة أمام الجميع . وكانت مستعدة أن تقوم بكل ما يطلب منها في سبيل شفائها لانها كانت مريضة من عهد بعيد : ولكن صورة الشك في نظراتها كانت أظهر من صورة الايمان وكان زعماء المدينة ينظرون اليه نظرة الازدراء وهم يقولون له في سرهم « قد أثرت الجماهير بأخاديعك الكثيرة في كفر ناحوم ، ولكن الناصرة ليست جاهلة لهذه الدرجة ! فنحن نعرفك من أنت . أنت لست بالنبي ؛ بل أنت ابن يوسف النجار لا أكثر ولا أقل ، ولن تستطيع الى خداعنا سبيلاً ! »

ولكن يسوع فتح السفر بهدوء وقرأ بصوته العذب الذي آثار الحماسة في قلوب سامعيه رغماً عن بغضهم واحتقارهم ما يأتي :

« أن روح الرب علي ،

ولاجل ذلك مسحني ، وأرسلني لابشر المساكين وأشفي منكسري القلوب ، وأنادي للمأسورين بالتخلية ،

وللعميان بالبصر

وأطلق المهشمين الى الخلاص ،

وأكرز بسنة الرب المقبولة . »

ثم طوى السفر ودفعه الى الخادم ، وقال لهم ، « اليوم تمت هذه الكتابة التي تليت على مسامعكم . وكان الصمت مخيماً على جميع الذين فى المجمع . وكانت عيون الجميع شاخصة اليه . » وقد عرف ما كان يجول فى أفكارهم وكيف أنهم كانوا يتوقعون منه آية عظيمة كالآيات التي صنعها في كفر ناحوم . ولكنه عرف أيضاً أن لا فائدة من ذلك لان جهل أبناء بلده الممزوج بالحسد كان يحول دون أي عمل من هذا القبيل. لانهم لم يكونوا عازمين على قبول رسالته؛ أو الافتخار به بل كانوا يريدون أن يظهر ما عنده و يتوقون الى رؤيته عاجزاً عن القيام بما يطلبونه منه . ولذلك قال لهم بصوت تقطعه الكآبة : « ليس نبي مقبولا في وطنه . في الحقيقة أقول لكم أن أرامل كثيرات كن في اسرائيل فى أيام ايليا حين أغلقت السماء ثلاث سنين وستة أشهر وحدث جوع عظيم فى الارض كلها . فلم يبعث ايليا الى واحدة منهن الا الى صرفت صيدا الى امرأة أرملة غريبة . وأن برصاً كثيرين كانوا في اسرائيل في عهد اليشع النبي ، ولم يطهر أحد منهم الا نعمان السوري الغريب » قال هذا وهم بالانصراف حزيناً كئيب القلب .

حينئذ هبت العاصفة فان حسد أبناء الناصرة للرجل الذي نبغ من بينهم وتفوق عليهم جميعاً تجمع في ذلك الجمهور فنهضوا بصوت واحد يطلبون قتله . فقاموا وهم ممتلئون غضباً وأخرجوه الى خارج المدينة واقتادوه الى قمة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه ليطرحوه عنها ولكن الغضب الذي كان كافياً لحمل الناس على قتله زال كأنه

لم يكن عندما التفت يسوع نحو الجمع ونظر اليهم وجهًا لوجه . فأنهم ما رأوا وجهه حتى رجعوا الى الوراء مذعورين لا يدرون ما يفعلون ، « أما هو فجاز في وسطهم ومضى . » وكانت أصوات الشتائم تتردد في أذنيه ولكنه لم يلتفت الى الوراء لفرط كآبته . ومن تلك الساعة صارت كفر ناحوم « مدينته » . لان الناصرة ، مدينة صبوته وموطن أهله وأنسبائه قد تخلت عنه بطوعها واختيارها .

« الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله . »

واخوته تخلوا عنه . وقد لا يجب أن نكثر من ملامتهم . لانه ما من رجل يستطيع أن يكون بطلاً في وطنه ؛ واقرب أنسباء الرجل العظيم ، الذين عاشوا معه وعرفوه في كل عمل من أعمال حياته ، هم في الغالب في طليعة الثائرين على عظمته المترددين في قبول رسالته . وقد شهد اخوة يسوع انكساره في وطنه ، وخروجه منه بالفشل تاركاً لهم احتمال العار من أهله ومواطنيه . فقد طالما هزأ بهم الناس وعيروهم ضاحكين صاخبين ! ولم تمر بهم ساعة من غير أن يسمعوا التأثير السيء الذي ابقته تلك الزيارة للناصرة وذلك الخطاب في المجمع ! . . . فقد كان أهل الناصرة ارديا بطبيعتهم ، ولكن الاخبار التي كانت تصل من المدن المجاورة كانت تعمل بالاكثر على شقاء عائلته وتعاستها . لان الاقوال كانت تنتشر في كل يوم انه يلقي الخطب المشاغبة في البلاد ؛ وأنه أدعى أن الله ارسله برسالة خاصة الى الناس ؛ وانه كان يحتقر فرائض الفريسيين ويوبخهم علانية في المجتمعات

العمومية . وكل هذا التصرف لم يكن يؤدي به الا الى نتيجة واحدة : وهي قيادة نفسه مع اهله وذويه الى السجن. ولذلك فأن أعضاء عائلته الذين كان يجب أن يكونوا في مقدمة المساعدين له ، صاروا في طليعة العاملين على ابعاده عن وطنه . لذلك تراهم عند ما كانت الامة تحتفل بالعيد في أورشليم يلحون عليه أن يذهب الى هناك وينصرف عنهم ويوبخونه قائلين انه اذا كان بالحقيقة قادراً أن يفعل كل ما كان يدعيه لنفسه فأن العاصمة هي افضل ميدان لعمله . وقد فعلوا كل ذلك ليبعدوه عن الجليل لانهم كانوا يعتقدون ان وجوده بينهم مضر به وبهم.

« لان اخوته انفسهم لم يكونوا مؤمنين به . »

وحدث مرة فيما هو يعلم في احد بيوت كفر ناحوم والجمع يزحمه الى خارج الابواب ، ان رسولا دخل بين الجمع الى حيث كان يسوع جالساً وقطع كلامه قائلا له ان امك واخوتك خارجاً يريدون أن يكلموك ويطلبون ان تخرج اليهم سريعاً . فغيمت في الحال سحابة من الكآبة على وجهه الصبوح . فقد عرف السبب الذي حملهم الى المجيء ؛ لانهم ارسلوا منذ اسابيع يتهددونه بمجيئهم . فقد قرروا في ذواتهم انه مجنون ولذلك عزموا على ارساله الى احد مستشفيات المجانين قبل ان يتطوح الى ما يعود عليهم بالويل والخراب . لاجل ذلك وقف بملء قامته واجاب الرسول مشيراً الى تلاميذه وقائلا :

« أمي وأخوتي ؟ أن هؤلاء المؤمنين بي هم أمي وأخوتي . »

فقد كان التلاميذ بالحقيقة أخوته الاوفياء وقد أظهروا ذلك

بمواقف عديدة ؛ ولكن أخلاصهم وحده لم يكن ليزيل كآبة قلبه، لما لحقه من أهله وذويه . وفي ساعة نصره الاخيرة عند ما كان الشعب يسير أمامه في الشوارع حاملين أغصان الزيتون وسعف النخل وصارخين « أوصنا لابن داود ، » في تلك الساعة نفسها كان يسوع حزين القلب لانه لم ير بين الجماهير المحتشدة حواليه واحداً من أخوته الذين ضحى شبابه بأسره في سبيلهم . لان كلمة واحدة من مثل هذا الاخ كانت تعزي روحه الكسيرة أكثر من تصفيق الالوف السائرة حواليه . ولكن أخوته كانوا بعيدين عنه ، يستحون بنسبته اليهم ، ويعتقدون أنه وأن كان بسيط القلب فهو مجنون يجب أن يعيش بين المجانين .

وقد مات صديقه الحميم يوحنا المعمدان الذي كان مديناً له بيدائة نجاحه . فان يوحنا قدمه للجمهور ؛ وقد تمكن من الحصول على تلاميذه الاولين لان يوحنا أعلن للناس أن يسوع نبي اعظم منه . وكان الرجلان يختلفان أحدهما عن الآخر بالاخلاق والتصرفات الاختلاف كله . لان يوحنا كان عبوساً صارماً كثير الوعيد والتهديد — روحاً وحيدة وصوتاً صارخاً في البرية . ولكن يسوع كان فرحاً لطيفاً يحب الناس ولا يشعر بسعادة بعيداً عنهم . وقد وضع يوحنا لتلاميذه قانوناً قاسياً للطقوس والاصوام ، ولكن يسوع لم يحترم الطقوس والفرائض وعلم تلاميذه أن يفعلوا فعله . وقد عرف أنه ويوحنا يجب أن يتم كل منهما عمله بطريقته الخاصة ولكنه لم يخطر

له قط ان الاختلاف في الرأي بينهما يؤثر في صداقتهما او يفكك رباط محبتهما . ولذلك شد ما كانت كآبته عندما جاءه رسولان من يوحنا بهذا السؤال الدال على الشك :

قال يوحنا : « هل انت بالحقيقة نبي كما اخبرت الشعب عنك فعوضا عن الصيام اراك في الحفلات والولائم . وعوضاً عن حض الناس على الابتعاد عن الملذات العالمية ، اراك تشارك الناس في ملذاتهم وافراحهم . هل انت رجاء العالم ، كما كنت اعتقد ، ام ننتظر آخر سواك ؟ »

وقد بعث يسوع جوابه حزيناً وقائلا لرسولي يوحنا : « اذهبا واخبرا يوحنا بكل ما رأيتما وسمعتما : فالعميان يبصرون ، والبرص يطهرون والمساكين يبشرون . »

كان الجواب بليغاً ، ولكن هل اقتنع صديقه به ؟ فأن يوحنا بعد هذه الحادثة ببضع اسابيع قضى اجله مستشهداً في سجن قصر هيرودس من اجل مبادئه وشجاعته . وعندما سمع يسوع بذلك « مضى حزيناً الى التلال وحده » . فان صديقه الحميم واول المؤمنين بدعوته قضى نحبه ضحية على مذبح انانية النظام الاجتماعي الذي كان يحاربه . وقد رأى في هذه الحادثة التي كسرت قلبه انذار له . لان الذين استطاعوا ان يقتلوا يوحنا سيجدون وسيلة للبطش به ان لم يكن عاجلا فآجلا . ولاجل هذا انقضت المصيبة عليه انقضاض الصاعقة وقضت على كل آماله في النجاح . وعند ما رجع من التلال كانت علامات الرزانة والوقار بادية

على وجهه ، والكآبة ظاهرة بكل حركة من حركاته او كلمة من كلماته فقد رأى الصليب قائماً فى نهاية طريقه . وكانت احمال الهموم تثقل قلبه لان الصديق الذي كان يجب ان يفهمه اكثر من جميع الناس . اساء منهم اعماله وتصرفاته ومات مشككاً فى رسالته .

ولم تقتصر أحزانه على هذا فحسب ، ولكن الشعب تخلى عنه . فقد اجتمعوا حواليه على شاطيء البحيرة وتطوعوا في خدمته ليسيروا به ويقيموه ملكا عليهم ولكنه ثبط عزائمهم وهرب من أمامهم الى الجبل ليفكر ويصلي . وليس شك في ان عودته اليهم فجأة لم تصادف استحسانهم ورضاهم . لانه لم يكن في حاجة الا الى اشارة صغيرة تعلن رضاه عن عملهم ليحملوه على اكتافهم ويسيروا به ظافراً الى أبواب المدينة . وعبثاً ترقبوا جواباً منه — وشد ما كانت دهشتهم عند ما سمعوا جوابه الاخير ! « انني لم آت لارجع مملكة أورشليم . لان رسالتي روحية ومملكتي ليست من هذا العالم : فأنا خبز الحياة . انكم تبعتموني لاني اطعمتكم في البرية ، ولكنني الحق اقول لكم انني قد جئت لكى اعطيكم ذاتي ، حتى اذا عرفتموني تعرفون اباكم الذي في السماوات . »

ان يسوع صفع الرؤساء على وجوههم بتعاليمه الماضية ، وقد حمل عمله الشعب بأسره الى الايمان به والاجتماع حواليه . ولولا ذلك لما كانوا ينذهلون مما سمعوه منه اخيراً . ولكنه ما عساه يعني بهذه الاقوال الاخيرة السرية ، وبأحاديثه عن « خبز الحياة » ؟ الم يروه

امام عيونهم يشفي المرضى و يتغلب عل الفريسيين بقوة بيانه — الم تكن جميع اعماله الماضية اشارات صادقة الى انه هو الزعيم المنتظر، الذى سبق الرب فوعـد به ، للقضاء على الرومانيين وارجاع عرش داوود ؟ والآن ، بعد ان دنت الساعة ، واصبحوا على اتم الاهبة للحرب ، يأتينا بهذه اللغة التي لا يستطيع احد ان يفهمها ؟

«فتذمر اليهود عليه لانه قال ، انا هو الخبز الذي نزل من السماء ،»

لانه اظهر بذلك احد امرين ! اما انه يجدف على الله او انه مجنون لا يفقه ما يقول . وفى الحالتين برهن انه لا يصلح للزعامة . ولذلك يستطيع من شاء من الامم ان يتبعه ، ولـكن اليهود يأبون ان يتبعوا مجنوناً مجدفاً مثله .

ولاجل ذلك اعرض عنه اكثر السامعين وانصرفوا من امامه ينكرون في كل محفل انهم كانوا فيما مضى من المؤمنين به . اما الاوفر شجاعة من اصدقائه فأنهم ظلوا يرافقونه طيلة الاسبوع ، وفي يوم السبت اجتمعوا بأسرهم في المجمع حيث كانوا واثقين بأنه سيتكلم . فقـد كان له في الايام الماضية متسع كاف من الوقت للاستعداد والتفكير ؛ وقد يكون قادراً اذ ذاك ان يقدم لهم جواباً حسن القبول لتثبيت ايمانهم المتزعزع . ولـكن لم يكن في خطابه شيء من هذا في ذلك اليوم . فأنه اعاد حديثه الاول الذي لا معنى له عن « خبز الحياة . » فقضى بذلك على البقية الباقية فى قلوب الذين آمنوا بأنه هو المزمع ان يخلص اسرائيل . ولذلك كانوا يقولون فيما بينهم ، ان هذا الكلام

صعب ، من يستطيع سماعه ؟ » وفي هذا كل الفاجعة لقلب المعلم .

« من ذلك الوقت رجع كثيرون من تلاميذه الى الوراء ولم يعودوا يمشون معه . »

قد انقلبت الرياح ضده . وقد أدرك هذا ولكن التلاميذ الاثني عشر لم يفقهوا شيئاً مما كان يحيط به . وكان في كل فرصة يعمل باجتهاد كثير على تسليحهم بالقوة الكافية للثبات في معارك الحياة التي كانت تنتظرهم . وقد أخبرهم أنه « يجب أن يذهب الى أورشليم ، ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل . » ولكنهم لم يقدروا ولم يريدوا أن يصدقوه . ولذلك أخذه بطرس المتحمس الشجاع الى ناحية وبدأ يزجره ويوبخه على ما بدا منه من الضعف وخوار العزيمة قائلاً : « حاشا أن يكون ذلك يا رب . أن هذا لن يحدث لك البتة . » كلمات قوية تفيض الشجاعة منها ، ولكنها دلت على جهل قائلها لحراجة موقف معلمه . لأن آماله بتجديد الحياة في أمته ذهبت أدراج الرياح ؛ ولم يبق أمامه للاحتفاظ بنفوذه في العالم الا أن يعمل كل ما في وسعه لربط تلاميذه برابطة متينة وختم عروتهم الوثقى بدمه .

وللمرة الاولى في عمل يسوع العام نراه يهجر فلسطين ويقود اتباعه الامناء في طريقه الى مدينتين غريبتين وهما صور وصيداء . وقد تمكن بهذه السفرة أن ينفرد بالاثني عشر ؛ وكان له في ذلك وسيلة لاعادة انتصاراته الماضية بصورة مصغرة . فان أولئك الغرباء

في سورية كانوا خالين من الغرض الشخصي في رسالته وعمله . ولذلك لم يعنوا بارجاع مملكةأورشليم ، ولم تكن لهم مصلحةبانتصاره السياسي على أعدائه . ولكنهم جاؤوا ليسمعوه لان كلماته أثرت في نفوسهم وأيقظت في قلوبهم رغبة هاجعة في الحياة السعيدة الطاهرة .

وقد أشفق يسوع على أولئك الغرباء وود لو يستطيع أن يقيم بينهم طويلاً . لانه كان يرتعش لمجرد الافتكار بسفره ثانيةالى الجليل فقد كانت تلك الارض ضريحًا قائمًا لجميع آماله ! لان كل طريق فيها ، وكل زاوية شارع ، بل وكل بيت وشجرة كانت تذكره بنجاحه الاول المجيد ! ولكنه لم يستطع أن يحول دون رغبته الخفيةفي الرجوع بطريق الجليل المحبوب الذي أحبه بهذا المقدار فغمط نعمته وكفر بجميله وصار في مقدمة أعدائه . فلا عجب والحالة هذه أن نسمعه ينطق بالويل على كورزين وبيت صيدا بل وعلى مدينته العزيزة كفر ناحوم — المدن الثلاثة التي أحسن اليها أكثر من الجميع . ولذلك صرخ قائلاً : « أن الويل لك يا كورزين ، الويل لك يا بيت صيدا ، لانه لو صنع في صور وصيدا ما صنع فيكما من القوات لتابتا من قديم بالمسوح والرماد . لكنني أقول لكم أن صور وصيدا ستكونان أخف حالة منكما في يوم الدين . وأنت يا كفر ناحوم ، ولو ارتفعت الى السماء فانه سيهبط بك الى الجحيم ، لانه لو صنع في سدوم ما صنع فيك من القوات لثبتت الى اليوم . »

ولكن الساكنين في هذه المدن لم يعودوا يصغون الى كلامه .

لان فكراً جديداً استولى على الناس وأبعدهم عنه . ولذلك كانوا يقولون قد كان له يومه ، ولم يبق له ما يقوله لنا . . . وهكذا مضى الربيع والصيف ، وجاء الخريف ، وجاء معه عيد المظال ، الذي عزم يسوع أن يعيده في أورشليم . وكأنه عزم بذلك على الانتحار . لان أخبار تضاؤل نفوذه وصلت الى الهيكل فتلقاها الزعماء فرحين متوعدين لان الجواسيس كانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد يوافونهم بكل صغيرة أو كبيرة عنه ; وكانت أصغر أخبار فشله تصل بسرعة البرق الى العاصمة ; ولذلك لم يكن في الامكان أن يبلغ أسوار أورشليم من غير أن يلقى القبض عليه . عرف كل هذا ، وعرف أن يسير الى الموت ، ولكنه لم يتحول عن عزمه . لانه كان يعتقد أن هذا العيد لن يعود عليه . وأن الوفاً من الزوار يأتون من جميع أنحاء العالم الى أورشليم في ذلك الوقت والواجب يقضي عليه أن يقدم لهم رسالته ليحملها بعضهم الى بلاده . ومع معرفته لعظم التضحية التي كان يقوم بها فانه لم يتردد لحظة بل جاء بطوعه واختياره الى المدينة .

وعند ما وصل الى مدخل الهيكل اجتمع الشعب حواليه لسماع ما عنده من الجديد . وقد كانت الفرصة سانحة أمامه ليخاطبهم بطريقته الفتانة فيسترجع مركزه في قلوبهم ; ولكنه لم يفعل ذلك . لان ساعة العنف في المقاومة قد دنت . ولذلك صرخ بالجموع قائلاً : « قد قدمت لكم الحق ; والحق يحرركم . » وعند ما صاحوا معترضين أنهم أبناء ابراهيم وفي هذه البنوة ما يكفي لتحريرهم ، أجابهم على الفور

قائلا ، أنهم ليسوا أبناء ابراهيم بل « أبناء ابليس ! »

وقد هموا بقتله في تلك اللحظة وفي ذلك المكان ولكنهم جبنوا أمامه وفارقتهم شجاعتهم . لانه كان بعد كل ما أصابه من الفشل لا يزال يسير وراءه جمهور لا يستهان به من الاتباع ، ولذلك كانت الحكمة تقضي بالتريث قليلاً . لأن كل خطبة من خطاباته كانت تثير جمعًا جديداً من الرؤساء ضده . ولذلك فان كبار الزعماء سيقبضون عليه في الوقت الملائم — وقد يكون ذلك في العيد القادم ، اذا لم يغير طريقته أو يعمد الى الهرب الى بلاد أخرى . بمثل هذا كانوا يتجادلون فيما بينهم ولذلك تركهم يسوع ومضى ثانية الى الجليل .

وقد تجدد اقبال الجمهور على استماع أقواله في الربيع الذي جاء بعد ذلك الخريف — ولكن الى حين . فان الجموع زحمته على الطريقة القديمة ؛ فلحظ التلاميذ ذلك وفرحوا فرحًا عظيماً . وكانوا يبشرون بعضهم بعضًا والآمال تنعش قلوبهم بالفوز الجديد قائلين ، « ان الجموع تأتي اليه ثانية لسماع كلامه . » ولكن تلك الساعات اللذيذة لم تكن طويلة . لأن الجمع لم يلبث ان أعرض عنه لأنه لم يجب طلباتهم . وكانوا يستغربون جداً الطريقة القاسية التي كان يعامل بها الفريسيين وبينهم الكثيرون من أفاضل اليهود وزعمائهم الذين طالما أحسنوا الى الشعب . لماذا كان يطردهم من اجتماعاته بأجوبته الناشفة ؟ ولماذا أخبر الشعب ان جميع صلواتهم الطويلة

المرتبة بموجب الطقوس لم تكن مقبولة عند الله وان صلاة العشار القصيرة التي انحصرت بعبارة « يا رب ارحمني أنا الخاطي » هي الصلاة الوحيدة المقبولة أمام عرش الرب ؟ ولماذا يعرض عن قبول أريحيتهم ليذهب الى بيت رجل منافق مثل زكا ؟ كل هذه كانت سؤالات مزعجة تتردد في اذهان البقية الباقية من أتباعه وهم يسيرون وراءه الى اورشليم لحضور العيد الكبير .

ان الاسبوع الوحيد الذي نعرف جميع تفاصيله في حياة يسوع هو الاسبوع الاخير . ولذلك نعرض عن سرد شيء من حوادثه في هذا الكتاب الصغير . فقد بدأ بهتاف النصر والغلبة وترانيم الشعب الصارخ « اوصنا لابن داود » ; وانتهى بصراخ المتعطشين لسفك الدماء القائلين ، « اصلبه ! اصلبه ! » وبين الصباح الاول من الانتصار وساعات الآلام الاخيرة شهد العالم أعظم انتصارات المعلم الاكبر على أعدائه . فانه لم يكن قط في حياته ثابت العزم ، وافر الشجاعة ، حاد الذهن كما كان في هاتين المرتين فقد تلفظ بقضائه الاخير على أعدائه غير خائف من الموت لانه وثق بأن الناس سيعرفون على ممر الاجيال المبادىء التي عاش لاجلها ومات لاجلها . لذلك يجدر بكل من يتعشق الرجولة والشجاعة الحق ان يقرأ هذه الفصول الاخيرة من حياته مرة في السنة على الاقل كما دونها الذين شاهدوها . لانه من الجريمة الكبرى ان يعمد الانسان الى سرد هذه الحوادث بلغته الخاصة أو اختصارها بطريقة جديدة . ولاجل

هذا نجتاز بها بصمت واحترام من غير ان تقف سوى لحظة واحدة امام ثلاثة مشاهد فيها وهي أعجب مشاهد التاريخ الانساني .

وأول هذه المشاهد — مشهد العشاء الاخير في مساء الخميس الـكبير . فقد عرف يسوع انه لن يجتمع مع تلاميذه حول المائدة مرة ثانية . وقد تزاحمت في ذاكرته اذ ذاك تذكارات جميع الحوادث التي جرت في حياته في السنوات الثلاث التي قضاها مع تلاميذه على الارض . فقد طالمـا جلسوا معاً تحت الاشجار أمام البحيرة يأكلون الاسماك التي يصطادونها بشباكهم . ذكر تلك الاويقات السعيدة وذكر العشاء الاول الذي تمتعوا فيه في عرس قانا الجليل عندما حوّل الماء الى خمر ! والمساء المجيد الذي أشبع فيه خمسة آلاف نسمة ! وأصوات التهليل والترنيم تتردد اصداؤها بين التلال ! وها قد أقبل العشاء الاخير ! ان انسباءه أداروا له ظهورهم ؛ وأبناء وطنه وضعوا العقبات الـكأداء في سبيل تقدمه ؛ وصديقه الحميم مات مشككاً فيه ؛ والشعب تخلى عنه ، واعداؤه اقبلوا لينتقموا منه — فهل في العالم زعيم سواه يستطيع أن يقف ثابت العزم أمام كل هذه الضربات القاتلة ؟ فـكيف اقتبلها ؟ هل تذمر ؟ هل وضع الملامة على الناس والظروف ؟ هل ظهر بمظهر الجبانة والضعف وشكا سوء حظه وغدر الناس ؟ تأمل جيداً أيها الراغب في ادراك الحقيقة ! تأمل جيداً فها هو يرفع رأسه ليتكلم ! تأمل جيداً في هذا الشاب الفخور الذي رفض ان يصير ملكا وها هو آت ليموت بين لصين

صغ جيداً فها هو يخاطب تلاميذه قائلا :

« لا تضطرب قلوبكم . . .

فقد غلبت العالم . »

ليس في تاريخ العظماء الذين نبغوا في العالم كلمات توازي عظمتها هذه الكلمات ! فقد نطق بها المعلم بعد ان انسحب أحد تلاميذه ومضى ليسلمه . وفي تلك الليلة كان الجنود مستعدين للقبض عليه ، وقيادته صاغراً الى اعدائه وباغضيه . والفريسيون والكهان الذين وبخهم كانوا على أهبة الانتقام منه بشرّ الميتات . في تلك الليلة كان الرعاع سيهزأون به ويجرونه في الشوارع التي شهدت مجيد عجائبه ساخرين ضاحكين ! قد عرف كل هذا ، ولم يكن يتوقع سواه ، ولكنه رغماً عن ذلك جميعه ، رفع رأسه ونظر الى جميع الاجيال الانسانية قائلا بلهجة الغالب الجسور : « ثقوا ، فقد غلبت العالم ! »

وبعد العشاء مضى مع تلاميذه الى البستان الذي طللا قضوا ساعاتهم السعيدة تحت أغصان أشجاره . وكان الهواء معطراً بأنفاس زهور تذكاراتهم المقدسة . في ظلال تلك الشجرة اجتمعوا للمرة الاخيرة يصلون ويسبحون بحمد ربهم ، والشمس تبعث أشعتها الاخيرة الى قباب المدينة العظيمة ؛ وفي مياه ذلك الجدول المنساب أمامهم وجدوا تبريداً لغلتهم ؛ وكان كل ما حواليهم من الاشجار والحجارة يذكرهم بسعادة الايام الماضية . في تلك الساعة نفسها كان يسوع قادراً لو شاء أن ينقذ حياته من هول الموت الذي كان يدنو منه شيئاً فشيئاً .

وهب أنه قال في نفسه : «قد أديت واجبات رسالتي بأمانة واخلاص ولم أصادف النجاح التي تاقت اليه روحي . قد مضى الاسخريوطي لاحضار الجنود ؛ وسيرجع بهم في نصف ساعة على الكثير . فلماذا أبقى ههنا واموت ؟ أن أريحا لا تبعد من هنا أكثر من ثمانية عشر ميلا ، والقمر بدر والطريق سهلة نزولا على التلال . وصديقنا زكا يفرح ولا شك أن يستقبلنا في منزله ونحن قادرون أن نصل الى بيته مع الفجر ، فنستريح غداً ، ثم نسير عند المساء ونعبر الاردن ، وهناك نقوم بخدمة الانسانية بقية حياتنا . التلاميذ يقدرون أن يرجعوا الى صيد السمك وأنا أستطيع أن أفتح دكان نجارة وأعلم الناس بطريقة هادئة . قد فعلت كل ما بلغت اليه طاقتي ، ولا تكلف نفس فوق طاقتها . فلماذا لا أغتنم الفرصة وانجو بحياتي وحياة أصدقائي ؟ ».

كل هذا كان ممكناً . والزعماء في أورشليم كانوا ولاشك يفرحون أن يتخلصوا منه على هذه الشروط الموافقة لهم . وقد كان في وسعه أن يتابع حياته هنالك الى شيخوخة متناهية ، سعيداً مطمئناً — من غير أن يدري أحد بوجوده . هذه هي التجربة الاخيرة والعظمى التي عرضت في طريق يسوع ولكنه تغلب عليها ظافراً . ولذلك نهض من مجلسه ومشى بضع خطوات صامتاً مفكراً يتبعه الاحد عشر — لان يهوذا لم يكن معهم بعد العشاء — واذ وصل الى مكان هادىء تركهم ومضى وحده للاجتماع الاخير مع أبيه .

وبعد بضع دقائق رجع فوجدهم نياماً . لان عيونهم كانت ثقيلة

ولم يستطيعوا السهر دقيقةواحدة. ولذلك لم يجد في ساعةحاجته العظمى اليهم من يساعده منهم . فمضى ثانية الى مكانه الاول تكده الآلام المريرة . فقد كان شاباً في الثالثة والثلاثين من العمر ؛ ولم يشأ أن يموت. وقد تضرع الى الله أن يعبر كأس الموت عن شفتيه ؛ ويتيح في أجله ليطهر أعداءه من الشرور التي كانوا يتمرغون في حمأتها ، ويضع الاساسات الراسخة للمبادىء المقدسة التي حملها للعالم ليرفع حياتهم من قذارة الارض الى طهارة السماء ، ويوصلهم الى ملء قامته الكاملة . بكل هـذا صلى باكياً وكانت دموعه تنسكب كقطرات الدم على الارض . ثم رجع الى التلاميذ فوجدهم أيضاً نياماً .

فلم يزعجهم في هذه المرة . لان براكين ثوراته هدأت؛ والشجاعة التي لم تفارقه سحابة حياته انعشت روحه اذ ذاك وأنقذته من الضعف في جسده وفكره .

ولذلك رجع وصلى للمرة الاخيرة قائلاً : « يا أبت ، ان كان لا يستطاع أن تعبر عني هذه الكأس الا أن أشربها ، فلتكن مشيئتك. »

وقد كانت هـذه الصلاة نشيد النصر والغلبة قبيل المعركة . فقد تمكن بهدوء الغالب العظيم أن يستقبل النهاية ثابت العزم . فأنه لم يكن في حاجة الي الانتظار طويلا لان الجنود كانوا يدخلون اذ ذاك في أبواب البستان . وكان يستطيع من النقطة المرتفعة التي يجلس عليها أن يراقب أنوار مشاعلهم ومصابيحهم تتقدم في الساقية الصغيرة والطريق المؤدية اليه . وكانت أصوات وقع أسلحتهم بعضها على بعض

تتردد في سائر انحاء البستان . وكان الصمت سائداً في هدوء ذلك الليل اكثر منه في قدس أقداس الهيكل . وقد ظل ينتظرهم حتى دنوا منه ، فوقف أمامهم وقال لهم :

« من تطلبون ؟ »

فأجابوا وهم يرتجفون من شدة الخوف والاحترام قائلين :

« يسوع الناصري . »

فقال لهم يسوع بشجاعة وفخر ، « أنا هو . »

قد توقعوا الانكار ، والمقاومة أيضا ؛ وكان في وسعهم أن يقتبلوا كل هذا . ولكن هذا الهدوء ، وهذه العظمة ، وهذه الشجاعة، كانت تفوق حدود اختبارهم . ولذلك ارتدوا الى الوراء رغماً عن ارادتهم « وسقطوا على الارض . »

فسألهم ثانية ، « من تطلبون ؟ » فقالوا ، « يسوع الناصري. »

فأجاب يسوع، « قد قلت لكم أني أنا هو. » ثم تذكر في تلك اللحظة بتلاميذه الذين شاطروه انتصاراته وتضحياته على ممر الايام وقال للجنود : « فأن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون . » قال هذا وهو يشير الى حيث كان تلاميذه . ولكنه لم يكن ثمة من حاجة الى الافتكار بسلامة تلاميذه . لانهم افتكروا بذواتهم وهربوا حالما سمعوا وقع أقدام الجنود خارج البستان — فكانوا آخر من تخلى عن المعلم —

— أولاً ، أبناء وطنه

— ثانياً ، صديقه الحميم
— ثالثاً، أقرباؤه
— رابعاً ، الشعب الذي أحسن اليه
— وأخيراً التلاميذ الاحد عشر .

أن جميع الذين وقفوا معه وتبعوه في حياته تركوه أخيراً ليواجه قضاءه وحيداً

على تلة جرداء وراء أسوار المدينة سمروا جسده الكامل على الصليب . وقد صلب معه لصان . وانتهى الامر . أما الرعاع الادنياء فقد ندموا على ما فعلوا وتفرقوا كل الى منزله ؛ وأصدقاؤه تواروا عن الانظار ؛ والجنود كانوا منهمكين بألقاء القرعة لاقتسام ثيابه . . ولم يبق ثمت من أثر للنفوذ الظاهري الذي يثير خيال الناس ويوقظ نيران الامانة في صدورهم . وليس شك في أن أعداءه نالوا منه بغيتهم، وخلفوه جثة هامدة معلقة على الصليب لا تستطيع أن تجترح أعجوبة قط .

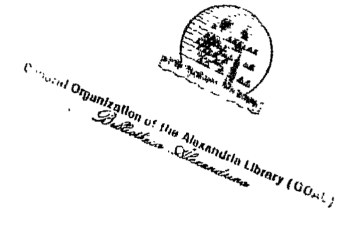
ولكن —

قد تعالى في هدوء تلك الساعة الرهيبة صوت أحد اللصين المصلوبين معه قائلا : « يا رب ، اذكرني اذا اتيت في ملكوتك ! »

فاقرأوا هذا ايها الناس واحنوا رؤوسكم . اقرأوا هذا انتم الذين اذنوا لانفسهم ان يصوروه ضعيفاً، ورجل آلام واحزان يستقبل الموت فرحاً لانه يريحه من حياته المريرة ! اقرأوا هذا واذكروا ان العالم قد

شهد غير واحد من الزعماء الذين استطاعوا ان يثيروا نيران الحماسة في صدور الناس وهم في اوج عزهم وقنة انتصارهم . ولكن يسوع ، بعد ان قضى اعداؤه على حياته الطاهرة وسمروه على الخشبة قد رفع نفسه بشجاعته الخالدة الى ارفع مراقى العظمة ولذلك نرى اللص المصلوب ينظر الى عينيه وهما تغمضان للمرة الاخيرة ويحييه تحية الملوك .

— انتهى الكتاب —



غرش صاغ مصري

٥ الرحلة السورية في الحرب العمومية بقلم شاهد عيان

١٠ مالك سويني الارلندي تاريخه ووصف سجنه وصيامه ٩٥ يوم

٣٠ الساق على الساق في ما هو الفارياق لاحمد فارس الشدياق

١٠ رسائل اليازجي ويليه ديوانه التاريخي للشيخ ابراهيم اليازجي

٨ أمثال الشرق والغرب وهو حكم وأمثال ليوسف البستاني

٣ تاريخ العصاميون الذين نبغوا من الفقر

٥ مجموعة خطب سعد باشا زغلول الحديثة

١٠ مشاهد العالم الجديد بقلم فؤاد صروف محرر المقتطف

٥ تهذيب النفس « « « « «

١٥ تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها الى الآن بالصور

١٠ عامان في عمان وهي مذكرات خير الدين الزركلي عن شرق الاردن وحوادث الامير عبد الله

٣ نزهة الطرق فى قراءة الكف تعريب حنا أسعد الحامي

٥ وقائع شاهين مرعي الشقي اللبناني الشهير

٢ الداء والشفاء قصيدتان للمرحوم سليمان البستاني

٥ رواية الامير أو الفتاة الفقيرة

٢٥ « باردليان وفوستا ٧ اجزاء

١٥ « زنبقة الغور لامين الريحاني

١٠ « الآباء والبنون بقلم ميخائيل نعيمه